بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلاله وكماله، وشكراً له يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، حمداً له ـ سبحانه ـ وشكراً أن فضَّلنا بالقرآن الكريم على الخلق أجمعين، وآتانا مالم يؤتِ أحداً من العالمين، أنزله علينا هداية ومنهاجاً، والصلاة والسلام على مَن كان خلقه القرآن، محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه الكرام، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن تدبر القرآن الكريم، والإقبالَ عليه نعمة منه ـ سبحانه ـ يمنُّ بها على من يشاء من عباده، فهي منحة ربانية، يُوفق لها العبد، وذلك مَحْضُ تفضل منه ـ سبحانه ـ وتكرم، فهو أهل الكرم والجود، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم.

ومن هنا جاء التوجه إلى الكتاب العزيز في الدراسات القرآنية؛ عسى أن يكون ذلك إسهاماً في خدمة القرآن الكريم، وإظهاراً لإعجازه وفصاحته.

وقد جاء اختياري للكتابة في هذا الموضوع؛ لأهميته، وجليل شأنه، فالحروف في اللغة العربية ركن رئيس، وأصل أصيل في بناء الجملة العربية، وفي تلاحم تراكيبها، وتلاوم أجزاء الكلام فيما بينه، وانتظامه في عقد فريد، إذ يكوّن مع الاسم والفعل الضلع الثالث من أقسام الكلام، ومن هنا فقد احتل الحرف منزلة مرموقة، ومكانة سامقة في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة.

ولن يكون حديثي عن الحروف في هذه الدراسة عاماً حيثما كان نوعه، وحيثما كان وجوده وموقعه، فذلك مما يصعب عمله، ويتعذر حصره، بل

سيكون مقصوراً على أنواع معينة من الحروف في القرآن الكريم، وقد توجهتْ الدراسة إلى ثلاثة أنواع من الحروف، وهي:

[١] الحروف المقطعة.

[٢] حروف المعاني.

[٣] حروف الصلة.

فسأقف مع هذه الأنواع الثلاثة مبيناً المراد بها، وموقفَ العلماء منها، وجهودَهم فيها على اختلاف تخصصاتهم، وتنوع مشاربهم، ذاكراً ـ كذلك ـ ما انطوتْ عليه هذه الحروف من الحِكم والأسرار البلاغية من خلال إيراد الشواهد المتعددة لها من القرآن الكريم.

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام الإشارة إلى أهمية السياق، وبيان أثره في دراسة هذه الحروف، وذكر بلاغتها، وأثرها في المقام الذي وردتْ فيه؛ وذلك أن للسياق أثراً بارزاً في الكشف عن المعنى، والدلالة عليه، ومن هنا فلا ينبغي إغفاله أبداً في الدراسات البلاغية، أو الاقتصار على موطن الشاهد فقط، فإن في هذا الصنيع تجزئة للعمل الواحد، وبتراً للأسلوب البلاغي من السياق الذي ورد فيه.

يتحتم هذا الأمر ويتعين حين ننظر في بلاغة هذه الحروف في كلام الله ـ عزَّ وجل ـ أو في كلام رسوله ﷺ فإن للحرف في كلامهما شأناً آخر تتعين الحفاوة به، وتتطلب مزيداً من النظر والتدقيق، ولذا فإني لن أغفل السياق في هذه الدراسة، وسأصحبه معي في تحليل النصوص؛ للوقوف على أسرار الحروف، ونكتها البياني.

وبعد: فهذا ما سأسعى إلى تحقيقه، والوصول إليه، فإن تمَّ ذلك على الوجه الذي أرجوه فقد حققتُ مرادي، وأصبتُ مبتغاي، وذلك تفضل منه ـ سبحانه ـ وتكرم، وإن كانت الأخرى فحسبي أن بذلتُ وحاولتُ، وإن لم أبلغ الكمال فحسبي ـ أيضاً ـ أني سعيتُ له واجتهدتُ، والله وحده هو الذي يتولى أمرنا، ويوفقنا إلى السداد والصواب.

والحمد الله رب العالمين.

وكتبه

عبدالعزيز بن صالح العمَّار

الرياض

ص.ب: ١٢٠٧٤٧

الرمز البريدي: ١١٦٨٩

aa٢٠٠٨ss@gmail.com

توطئة

قبل الشروع في خصائص الحروف، فثمة وقفة مع تعريف الحرف لغة واصطلاحاً ، وبيان سبب تسميتها، وذكر شيء من خصائصها، وما يميزها عن الفعل والاسم؛ لكي نكون على بينة وإلمام بالحرف الذي نتناوله بالدراسة.

فيعرفه ابن جني قائلاً :«وأما الحرف فالقول فيه، وفيما كان من لفظه: أن (ح رف) أينما وقعتْ في الكلام يُراد بها حد الشيء وحِدته، من ذلك حرف الشيء : إنما هو حدّ ه وناحيته »[١]، ويذكر المرادي مزيداً من تعريفه قائلاً: «الحرف في اللغة هو الوجه الواحد، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحج : ١١] أي على وجه واحد، وهو أن يعبده في السراء دون الضراء، أي يؤمن به ما دامتْ حاله حسنة، فإن غيَّرها الله، وامتحنه كفر به، وذلك لشكه وعدم طمأنيته »[٢]، وحرف كل شيء : ناحيته، كحرف الجبل، والنهر، والسيف، وغيره .[٣]

وأما سبب تسميتها بهذا الاسم، فلعدة أسباب، منها :

[١] أن الحرف حدُّ منقطَع الصوت، وغايته[٤].

[٢] لأنه طرفٌ في الكلام، وفضلة، والحرف في اللغة :الطرف، ومنه قولهم: حرف الجبل، أي: طَرَفَه، وهو أعلاه المحدد[٥] .

---

(١) سر صناعة الإعراب: ١/ ٢٤ ، لأبي الفتح عثمان بن جني .

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني: ٢٤ ، للحسن بن قاسم المرادي .

(٣) لسان العرب: مادة: حرف .

(٤) انظر: سر صناعة الإعراب: ١/ ١٤ .

(٥) انظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٢٣ .

[٣] لأنه يأتي على وجه واحد، والحرف في اللغة هو : الوجه الواحد [١].

وأما تعريفه اصطلاحاً فيذكر ابن يعيش بعد أن ذكر تعريف الزمخشري للحرف وهو (ما دل على معنى في غيره، ومن ثَم لم ينفك من اسم أو فعل يصحبه)[٢]، قال الشارح : «ومعنى الحرف في غيره، ألا تراك إذا قلتَ الغلام فُهم منه المعرفة، ولو قلت : (أل) مفردة لم يُفهم منه معنى، فإذا قُرن بما بعده من الاسم أفاد التعريف في الاسم، فهذا معنى دلالته في غيره»[٣] ومعنى هذا : «أن الحروف روابط في التركيب يُوقف معناها على ذكر متعلقاتها، وإذا أُفردتْ فقد تبخرتْ معانيها»[٤]، ويذكر ابن السراج مزيداً مما يميزه قائلاً : «الحرف لا يجوز أنْ يُخبر عنه كما يُخبر عن الاسم، ألا ترى أنك لا تقول : إلى منطلق، كما تقول: الرجل منطلق، ولا: عن ذاهب، كما تقول: زيد ذاهب، ولا يجوز أن يكون خبراً، لا تقل : (عمرو إلى، و لا بكر عن)، فقد بان أن الحرف من الكلم الثلاثة هو الذي لا يجوز أن تُخبر عنه، ولا أن يكون خبراً، و الحرف لا يأتلف منه مع الحرف كلام، لو قلتَ: (أمِنْ) تريد ألف الاستفهام، و (مِنْ) التي يُجر بها، لم يكن كلاماً، ولا يأتلف من الحرف مع الفعل كلام، لو قلتَ: أيقوم ؟ ولم يعلم المخاطب أنك تشير إلى إنسان لم يكن كلاماً، ولا يأتلف ـ أيضاً ـ منه مع الاسم كلام، لو قلتَ : أزيد، كان كلاماً غير تام»[٥] .

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني: ٢٤ .

(٢) المفصل في علم العربية: ٢٨٣ ، للزمخشري .

(٣) شرح المفصل: ٨/ ٣ ، لابن يعيش النحوي .

(٤) تناوب حروف الجر في لغة القرآن: ٧ ، د. محمد حسن عواد .

(٥) أصول النحو: ١ / ٤٠ ، لأبي بكر محمد ابن السراج .

وإنما كان هذا البيان للحرف حداً وتسمية ؛ ذلك «أن الحرف الواحد من القرآن معجز في وضعه ؛ لأنه يُمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السرُّ في جملته إعجازاً أبدياً»[١] .

هذا ماذكره الرافعي عن مكانة الحرف ومنزلته، وهو ممن يرى أن سرَّ إعجاز القرآن عنده في نظمه، وجهات النظم عنده ثلاث : في الحروف والكلمات والجمل، مما يكشف لنا بجلاء أهمية الحرف ومكانته .

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ١١٢ ، مصطفى صادق الرافعي .

المبحث الأول

الحروف المقطعة

هي تلك الحروف التي افتتح الله بها بعض سور القرآن، وقد تعددتْ هذه الحروف وتنوعتْ ما بين : (ألم، وألمص، وألر، وألمر، وكهيعص، وطسم، وطس، ويس، وص، وحم ، وعسق، وق، ون)، وقد اختلف العلماء في معاني هذه الحروف، وكثرتْ أقوالهم، وتعددتْ، فقل أن تجد تفسيراً إلاَّ يشير في مقدمة كتابه إلى هذا الاختلاف، وإلى تلك الأقوال وتعددها، نجد هذا عند المفسرين على امتداد القرون والعصور، فهاهو الأخفش في القرن الثالث [٢١٠هـ] يشير إلى ذلك قائلاً : «وقد اختلف الناس في الحروف التي في فواتح السور»[(١)]، وفي القرن الرابع نجد الطبري [٣١٠ هـ] يذكر الأمر نفسه قائلاً : «ولقد اختلفتْ تراجمة القرآن في تأويل قول الله ـ تعالى ـ (ألم)»[(٢)]، وفي القرن الخامس نجد الواحدي [٤٦٨] يُشير إلى هذا في تفسيره قائلاً : «فقد كثر اختلاف الناس في هذه الحروف المقطعة، وأشباهها في القرآن»[(٣)]، وظل العلماء الواحد تلو الآخر يشيرون إلى تعدد هذه الأقوال وكثرتها، واختلاف العلماء فيها، حتى قال السيوطي : «قد تحصل لي فيها عشرون قولاً وأزيد»[(٤)]، ثم يأتي ـ من المتأخرين

---

(١) معاني القرآن: ١/ ١٧٠ للأخفش سعيد بن مسعدة .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١/ ٨٦ ، لابن جرير الطبري .

(٣) تفسير البسيط ، ٣٨١ ، للواحدي .

(٤) الإتقان في علوم القرآن: ١/ ٦٥٨ ، للسيوطي .

ـ الطاهر بن عاشور ويُوصِلها إلى واحد وعشرين قولاً بعد أن يحذف منها المتداخل والمتشابه[١] .

وسأذكر هذه الأقوال، وأصحابها، ثم أنظر فيها نظرة ترجيح وتدقيق، وما يصح منها وما لا يصح، فيرى فيها فريقٌ من العلماء رأياً ملخصه: أن لكل كتاب سراً، وسرُّ القرآن فواتحه، وأن الله لم يجعل لأحد سبيلاً إلى إدراك معانيها، وأنها مما استأثر الله بعلمها، فنحن نؤمن بظاهرها، ونَكل علمها إلى الله[٢]، وأن فائدة ذكرها طلبُ الإيمان بها، وأن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي[٣]، وأننا نؤمن بها، وتُمرُّ كما جاءت [٤]، وأنها مما عجز العلماء عن إدراكها [٥]، وأن كثيراً من العلماء ردَّوا علمها إلى الله، ولم يفسروها [٦]، وأنها من المتشابه جرياً على مذهب السلف القائلين باختصاص الله بعلم المراد منها [٧]، وألاَّ نتكلم بشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمةً لله ـ عزَّ وجل ـ لا تبلغها عقولنا، ولا تهتدي إليها أفهامنا ، ولا تحيط

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ١/ ٢٠٧ .

(٢) انظر: تفسيره البسيط: ٣٨١ ، ويُروى هذا عن أبي بكر وعلي ـ رضي الله عنهما ـ والشعبي .

(٣) ويروي هذا القول عن علي ـ رضي الله عنه ـ انظر: معالم التنزيل: ١/ ٤٤ ، للبغوي .

(٤)ويروي هذا القول عن سفيان الثوري ، وجماعة من المحدثين ، انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ١/ ٨٢ .

(٥)ويُروى هذا القول عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ انظر: التفسير الكبير: ٣/٢ .

(٦)ويُروى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ والربيع بن خُثَيم، وأبو حاتم بن حبان ، انظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٨ .

(٧) انظر: حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين: ١/ ٦ .

بها علومنا [١]، وأن جهل أمثالنا بالمراد بها لا يَضرُّ؛ فإن من الأفعال التي كُلفنا بها ما لا نعرف وجه الحكمة فيه، والطاعة فيه أدل على كمال الانقياد، ونهاية التسليم، ويكون المقصود من ذلك ظهور كمال الانقياد من المأمور للآمر، ونهاية التسليم والامتثال للحكيم القادر[٢]، وأن الأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله لم يُنزلها عبثاً بل لحكمة لا نعلمها[٣]، وأننا نفوض الأمر فيها إلى الله، ويَسَعُنا في ذلك ما وسع صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم، وليس من الدين في شيء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل التي قلما يسلم مخترعها من الزلل [٤]، ومِمَن قال بهذا القول : الخلفاء الراشدون، وابن عباس، وابن مسعود ــ رضي الله عنهم أجمعين ـ والشعبي، وسفيان الثوري، والربيع بن خيثم، وأبو حاتم بن حبان، وأبو حيان الأندلسي[٥]، والقرطبي[٦]، والسيوطي[٧]، والألوسي[٨]، ومحمد عبده[٩]، والشوكاني[١٠]، وجماعة من المحدثين وغيرهم .

---

(١) انظر: فتح القدير الجامع بين فين الرواية والدراية في علم التفسير: ١/ ٣٢ ، لمحمد بن علي الشوكاني .

(٢) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ١/ ١٠١ ، للألوسي البغدادي .

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١/ ٣١ ، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي .

(٤) انظر: تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار: ١ / ١٢٢ ، لمحمد رشيد رضا .

(٥) انظر: البحر المحيط: ١/ ١٥٨ ، لأبي حيان الأندلسي .

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٠٠ ، لأبي عبدالله محمد القرطبي .

(٧) انظر: تفسير الجلالين: ١ ، لجلال الدين أبي بكر السيوطي .

(٨) انظر: روح المعاني: ١ / ١٠١ .

(٩) انظر: تفسير المنار: ١ / ١٢٢.

(١٠) انظر: فتح القدير: ١ / ٣٢ .

ويقابل هذا الرأيَ رأيٌّ آخر، يرى أصحابه أنه يجب أن يُتكلم فيها، وتُلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تخرج إليها [١]، وقالوا : لا يجوز أن يرد في كتاب الله ما لا يكون مفهوماً للخلق [٢]، وذكروا أنها معلومة المعاني[٣]، وقالوا: إن لهذه الحروف تفسيراً، ويُطلب لها التأويل ؛ لأننا نجد العرب قد تكلمت بالحروف المقطعة كما ورد ذلك في شعرها ونثرها.[٤] والشواهد في هذا كثيرة ، «فليس كونها في القرآن مما تُنكره العرب في لغتها، فينبغي إذا كان من معلوم كلام العرب أن يُطلب تأويله، ويُلتمس وجهه» [٥] .

فيذكر أصحاب هذا الرأي أن لهذه الحروف معاني ؛ ولكنهم مختلفون في معناها على أقوال كثيرة، وأشهر هذه الأقوال :

[١] أنها حروف يُستفتح بها، فقد جاء الابتداء بها ليُعلم أن السورة التي قبلها قد انقضتْ ، وأنه قد أَخَذ في أخرى، فَجُعلتْ هذه الحروف علامة لانقطاع ما بينهما، وذلك موجود في كلام العرب[٦].

[٢] وقيل : إنما هي حروف إذا وصُلتْ كانت هجاء لشيء يُعرف معناه، وقد أُوتي بعض الناس علم ذلك، وذلك أن بعضهم كان يقول : (ألر) و (حم)

---

(١) انظر: المحرر الوجيز : ١/٨٢ .

(٢) انظر: التفسر الكبير: ٢ / ٣ .

(٣) انظر: معالم التنزيل: ١/ ٤٤ .

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه: ١/ ٦٢ ، و: معالم التنزيل: ١/ ٤٤ ، و: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٩ .

(٥) المحررالوجيز: ١/ ٨٣ .

(٦) انظر: معاني القرآن: ١/ ١٧٠ ، للأخفش .

و(ن) هذا هو اسم الرحمن، وما بقي منها فنحو هذا، وقالوا إن : قوله: (كهيعص) معناه :كافٍ، هادٍ، عالم، صادق، فأظهر من كل اسم منها حرفاً ليُستدل به عليه[١] .

[٣] وقيل : هو اسم للسورة [٢].

[٤] وقيل: هو اسم من أسماء الله .

[٥] وقيل : هو اسم الله الأعظم .

[٦] وقيل : هو قسم أقسم الله تعالى بهذه الحروف؛ لشرفها وفضلها، لأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة، ومباني أسمائه الحسنى، وصفاته العلى، فكأنه أقسم بهذه الحروف أن القرآن كتابه، وكلامه لا ريب فيه .

[٧] وقيل : هي حروف مقطعة من أسماء وأفعال كل حرف منها لمعنى غير معنى الحرف الآخر .

[٨] وقيل : هي حروف من حروف المعجم أُستُغني بذكر ما ذُكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما استُغني المُخْبِر عن ذكر حروف المعجم الثمانية والعشرين بذكر (أ ب ت ث) عن ذكر بقية الحروف .

[٩] وقيل : معنى هذه الحروف هي ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أُنزله عليك، لأن قوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ٦] وعد من الله أن يُنزل عليه كتاباً، فلما أنزل عليه القرآن قال : (ألم) ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أقرئكه

---

(١) انظر: معاني القرآن للأخفش: ١ / ١٧٠ .

(٢) الأقوال من (٣ ـ ٨) ذكرها الطبري في تفسيره ، انظر: جامع البيان: ١/ ٨٦ .

فلا تنسى، فاكتفى من حروف (أ ب ت ث) بـ(ألم، و ألمص) و أشباه ذلك، والعرب تُكني ببعض الشيء عن كله [١].

[١٠] ولقطرب في معناها، يقول : لما لغا القوم في القرآن فلم يفقهوه حين قالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] فلما نزلتْ هذه الحروف سكتوا لما سمعوها طمعاً في الظفر بما يحبون ليفهموا ـ بعد هذه الحروف ـ القرآن وما فيه فتكون الحجة عليهم أثبتْ إذ جحدوا بعد تفهم وتعلم [٢].

[١١] أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعدد كالإيقاظ وقرع العصا لِمن تُحدي بالقرآن وبغرابة نظمه، وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم ـ وقد عجزوا عنه عن آخرهم ـ كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم [٣].

[١٢] ولعل له صلةً بما قبله: أن ورود السورة مصدرة بهذه الحروف قرع للأسماع ، وليستقل كذلك بوجه من الإغراب، وتقدمة من دلائل الإعجاز .

[١٣] أن هذه الحروف إمارة جعلها الله لأهل الكتاب أن سيُنزِل على محمد ﷺ كتاباً في أول سورة منه حروف مقطعة[٤] .

[١٤] وقيل : هي تنبيه، كـ : (يا) في النداء .

---

(١) انظر: تفسير البسيط: ٣٨٦ .

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه : ١/ ٦٢ ، لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج.

(٣) هذان القولان (١٢ـ ١٣) ذكرهما الزمخشري في تفسيره ، انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/ ٩٥.

(٤) الأقوال من (١٤ ـ ١٦) ذكرها ابن عطية في تفسيره، انظر: المحرر الوجيز: ١/ ٨٢ .

[١٥] وقيل: هي حروف كل واحد منها إما أن يكون اسماً من أسماء الله، وإما نعمة من نعم الله، وإما اسم ملك من الملائكة، أو نبي من الأنبياء.

[١٦] وقيل: إن الله إنما ذكرها؛ لأن في التقدير كأن الله قال: اسمعوها مقطعة حتى إذا وردتْ عليكم مؤلفة كنتم قد عرفتموها قبل ذلك، كما أن الصبيان يتعلمون هذه الحروف أولاً مفردة ثم يتعلمون المركبات [(١)].

[١٧] وقيل: إن هذه الحروف ثناء أثنى الله ـ عز وجل ـ على نفسه.

[١٨] وقيل: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم اللهُ بها العربَ حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من هذه الحروف التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج عن كلامهم[(٢)].

هذه هي مجمل الأقوال التي قيلت في الحروف المقطعة، والناظر فيها يرى أنها ترجع إلى رأيين اثنين لا تخرج كل الأقوال عنهما، رأيٌ يرى أنه من الأسلم السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله لم يُنزلها عبثاً بل لحكمة.

ورأيٌ يرى خلاف ذلك، إذ يرى أنه لا بد من الوقوف على معناها، ثم راح بعد ذلك يذكر الأقوال في معناها وتفسيرها، كما تقدم بسط هذين الرأيين.

أما القول الثاني الذي يرى أصحابه أن ليس في القرآن شيء لا يُعرف معناه، واستدلوا على ذلك بالآيات والأخبار والمعقول[(٣)]، فيُقال لهم: هذا صحيح

---

(١) هذان القولان (١٧ ـ ١٨) ذكرهما الرازي في تفسيره، انظر: التفسير الكبير: ١/ ٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٠٠.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ٢/ ٣.

والأمر كما قلتم، ولكن ليس في القول الأول ما يدل على أن في القرآن شيئاً لا يُعرف معناه، وأما قولهم : إنها (سرٌّ) فقد يكون هذا إشارة منهم «إلى التباس أمرها، وصعوبة الوصول إلى المراد منها» [(١)]، والذي دفعهم إلى هذا التوقف والسكوت هو خوفهم من الخوض والتقول على الله بغير علم، كيف وكثير منهم من صحابة رسول الله ﷺ وكبار التابعين، فهم من ذلك الجيل الذي رباهم رسول الله ﷺ على تعظيم كتاب الله، والخوفِ من التقول فيه بغير علم، وحسبهم واعظاً في ذلك وزاجراً ما سمعوه من رسول الله ﷺ محذراً من القول في القرآن برأيه، وبما لا يعلم، فعن جندب بن جنادة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : **(مَن قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ)**[(٢)].

وإذا تتبعنا أقوال أصحاب الرأي الأول نجدهم يحذرون من القول فيها من غير مستند شرعي، ويردون علمها إلى الله مع يقينهم أن لها معنى، وأن في إنزالها حِكَماً قد اشتملتْ عليها، وقد ذكر ابن كثير كلاماً نفيساً في هذا الباب حينما قال : «لاشك أن هذه الحروف لم يُنزّلها ـ سبحانه وتعالى ـ عبثاً ولا سدى ، ومَن قال من الجهلة : إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيراً، فتعين أن لها معنى، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلاّ وقفنا حيث وقفنا، وقلنا ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧]»[(٣)]، فهذا هو منهجهم،

---

(١) الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة: ١٧ ، د السيد عبد المقصود جعفر .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: ٣/ ٣٢٠ ، في كتاب العلم .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ١/ ٣٩٠ .

وذا رأيهم ، وهذا ما دفعهم إلى هذا القول من غير أن يزعموا أن في القرآن شيئاً لا يُعرف معناه، إذ «لايجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لا معنى له، ودليل هذا إجماع السلف، فإنهم فسروا جميع القرآن، قال مجاهد : عرضتُ المصحف على ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية فأسأله عنها»[١].

والذي يسترعي النظر في الرأي الثاني هو أن أصحابه لم يُجْمِعوا على قول معين بل ساروا في دروب شتى «وذلك أن أكثر تلك الأقوال التي قيلت لا يُبنى أي منها على قاعدة مضبوطة ، أو معايير محددة، بل هي باب مفتوح لكل من أراد أن يدخل منه، ولكل من أراد أن يقول فيه بمجرد الظن والوهم والتخمين»[٢]، ولي مع هذا الرأي عدة وقفات :

الوقفة الأولى : فسر كثير منهم هذه الحروف بأنها أسماء لله ـ عزَّ وجل ـ ، أو أنها أسماء للملائكة، أو أنها أسماء لأنبيائه، أو أنها أسماء لسور القرآن، فيُقال لهم: من عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله ، وصفاته أنها توقيفية، يُوقف منها على ما جاء في كتاب الله، وما صح من أحاديث رسول الله ﷺ، كما حكى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حينما قال: «والقول الشامل في جميع هذا الباب أن يُوصف الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله لا يُتجاوز القرآن والحديث ... ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصف به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل»[٣]،

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٧/ ٣٩٠ .

(٢) الفواتح الهجائية وإعجاز القران: ٣٤ .

(٣) الفتوى الحموية الكبرى: ٣٠، لشيخ الإسلام ابن تيمية .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ في حديث صحيح متفق عليه قوله: **(إن لله تسعة وتسعين اسماً مَن أحصاها دخل الجنة)**[١]، وأما ذكر هذه الأسماء التسعة والتسعين فقد ذكرها الترمذي [٢] وابن ماجة [٣] على اختلاف بينهما في الرواية في تعدادها، فهذه الأحاديث الصحاح في أسماء الله لم يرد فيها شيء مما ذكروا.

ويجري على هذا أسماء الملائكة فإنها توقيفية على المصدرين: الكتاب والسنة؛ لكونها غيبية مصدرها الوحي.

وأما مَن قال إنها أسماء لرسول الله ﷺ فيُقال لهم: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، إذ لم يثبت عنه في حديث صحيح ـ فيما أعلم ـ أن هذه الحروف أسماء له، بل ثبت عنه أنه ذكر أسماءه ولم يذكر منها هذه الحروف المقطعة، فعن جبير بن مطعم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **(لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)** متفق عليه [٤]، فهذه أسماء رسول الله ﷺ ـ فيما صح عنه ـ ولم يرد فيها شيء مما ذكروا.

---

(١) أخرجه البخاري، (١١/ ٢٥٦)، كتاب الدعوات، باب« لله مائة اسم غير واحدة»، رقم الحديث (٦٤١٠)

وأخرجه مسلم (٤/ ٢٠٦٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم الحديث (٢٦٧٧) باب في أسماء الله تعالى، وفضل من أحصاها.

(٢) سنن الترمذي (٩ / ١٧٣) كتاب الدعوات، باب أسماء الله الحسنى بالتفصيل، رقم الحديث (٣٥٠٢).

(٣) سنن ابن ماجة (٢ / ١٢٦٩) كتاب الدعاء، باب أسماء الله عز وجل، رقم الحديث (٣٨٦١).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، رقم الحديث (٣٥٣٢)، وأخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه ـ ﷺ ـ رقم الحديث (٢٣٥٤) ٤/ ١٨٢٨.

وأما أنها أسماء لسور القرآن، فإن أسماء القرآن توقيفية كذلك على ورود النص من الشارع الحكيم، وفي ذلك يقول السيوطي «وقد ثبتْ جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار»[١]، ولو كانت هذه الحروف المقطعة أسماء لسور القرآن «لوجب أن يُعلم ذلك بالتواتر؛ لأن هذه الأسماء ليستْ على قوانين أسماء العرب، والأمور العجيبة تتوافر الدواعي على نقلها، ولاسيما فيما لا يتعلق بإخفائه رغبة أو رهبة، ولو توافرتْ الدواعي على نقلها لصار ذلك معلوماً بالتواتر، وارتفع الخلاف فيه، فلمَّا لم يكن الأمر كذلك علمنا أنها ليست من أسماء سور القرآن»[٢] إذن فجميع ما تقدم من أسماء الله وملائكته، وأسماء رسله، وأسماء القرآن كذلك كلها توقيفية، ولم يرد شيء صحيح يُعَول عليه في ذلك.

ولقائل أن يقول بعد هذا: هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به؟ يجيب عن هذا السؤال الإمام الشوكاني قائلاً: «لا أعلم أن رسول الله تكلم في شيء من معانيها، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها، فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **(من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)**[٣]، ويذكر ـ أيضاً ـ أنه ما ثبتْ عن صحابة رسول الله ﷺ شيء في ذلك، إذ لو كان عندهم شيء عن النبي في هذا لما تركوا

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ١/ ١٦٦.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٢/ ٩.

(٣) رواه الترمذي: ٨ / ١١٥، أبواب ثواب القرآن، من حديث ابن مسعود.

حكايته عنه، ورفْعَه إليه، ولاسيما عند اختلافهم، واضطراب أقوالهم في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه ولا مدخل»[١].

الوقفة الثانية : مَن قال: إن هذه الحروف تدل على حساب الجُمَّل، وأنه من خلال هذه الحروف المقطعة تعرف مدة الآجال، وأن فيها توقيتاً للوقائع والحوادث، فأقول: لا يخفى بطلان هذا القول، وقد تصدى علماؤنا لهذا القول وردوه بقوه، فهذا ابن كثير يذكر أن من زعم ذلك فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطارده، وبيّن أنهم اعتمدوا في ذلك على حديث ضعيف[٢]، وهذا ابن حجر ـ كذلك ـ يرده بِرُمَّته قائلاً :«وهذا باطل لا يعتمد عليه، فقد ثبت عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ الزجر عن أبي جاد ، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر، وليس ذلك ببعيد، فإنه لا أصل له في الشريعة»[٣].

الوقفة الثالثة : قول من قال : إن ورود هذه الحروف بسبب ما كان من حالة كفار قريش من إعراض عن القرآن، وأمرهم باللغو فيه، فيُقال له : ما ثبت عن كفار قريش أنهم بعد سماعهم لهذه الحروف المقطعة أصغوا إليه، وكفوا عماهم عليه من الإعراض واللغو، بل إن الحروف المقطعة من أوائل ما نزل في الفترة المكية، ولم يُغَيِّر هذا شيئاً من واقعهم كما حكى ذلك القرآن عنهم مصوراً موقفهم الجديد من الدعوة، ومن صاحبها، بل ومن القرآن، وقد ضعّف ابن كثير هذا القول ورده ، وقال: «لو كان كذلك لكان في جميع السور

---

(١) فتح القدير: ١/ ٣٢ .

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٤١ .

(٣) نسب ذلك إليه السيوطي في الإتقان: ١/ ٦٦٣ .

لا يكون في بعضها بل غالبها، ثم إن هذه السورة والتي تليها «البقرة وآل عمران» مدنيتان ليستا خطاباً للمشركين فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه»[١].

وكذلك يضعّف من قال: إن هذه الحروف كالاستفتاح والتنبيه، ويَرَدُّ ذلك بقوله: «لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تُذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة»[٢].

وهكذا لا يكاد يسلم قول من الأقوال التي ذكروها من ملمزم ومدخل، وكأن الدافع لأصحاب هذا الرأي في ذكر هذه الأقوال أنهم يدافعون عن القرآن، ويتسابقون في تبرئة ساحته من وجود هذه الحروف المقطعة فيه التي حيرتْ العقول والأفهام، وقد كانوا في غنى عن هذا كله؛ لأن هذه الحروف كانت وفق أسلوب عربي معهود عندهم ومعروف، ولو كانت غير معلومة لتبادر ـ أولاً ـ صحابة رسول الله ﷺ ـ وهم الحريصون كل الحرص على تعلم أمور دينهم ـ لسؤال رسول الله ﷺ عن معناها ومغزاها، ولو كانت غير معلومة ـ ثانياً ـ لوجد كفار قريش في القرآن مغمزاً وملمزاً، يقول السيوطي: «لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي ﷺ، بل تلا عليهم (حم فصلت، ص) وغيرهما، فلم ينكروا ذلك، بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة، مع تشوفهم إلى عثرة، وحرصهم على زلة، فدلَّ على أنه كان أمراً معروفاً لا إنكار فيه»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٤٠.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٠.

(٣) الإتقان: ١/ ٦٦٤.

والذي تطمئن إليه النفس بعد هذا رأي مَن يسلم الأمر فيها إلى الله، ويرد العلم إليه، مع يقينه أن لها معنى، وأن لوجودها حكمة، ولكنهم ينطلقون من المستند الشرعي، فإن وُجد وإلاّ فإنهم لا يُقْحِمون أنفسهم فيه، ولا يَرِيدون المهالك، ويقوي هذا أن ممن قال به الخلفاء الراشدون، وبعض التابعين، ومشاهير المفسرين، وعلى رأسهم الحافظ ابن كثير، والإمام الشوكاني، بخلاف الرأي الثاني الذي حمل رايته بعض من اللغويين «وبعضهم يتكلم في تفسير كل شيء في القرآن ، ويتوسعون في القول في ذلك، حتى ما منهم أحد إلاّ وقد قال في ذلك أقوالاً لم يُسبق إليها، وقد تكون خطأً»[1]، لذا فعلينا قبل أن نجري خلف هذه الأقوال أن نسأل أنفسنا هل ثبت في هذا شيء ؟ وهذا السؤال مع إجابته يجعلنا ننطلق من قاعدة صلبة، تثبت أمام العواصف ولا تزعزع، ولا يكون عليها مدخل أوملحظ.

ومما تقدم يتضح بجلاء رجحان الرأي الأول ؛ لِمَا فيه من التثبت، وتحري الدليل، بخلاف الرأي الثاني، الذي تتعددتْ الأقوال فيه واضطربت، فذكروا معاني لهذه الحروف من غير مستند شرعي يدعمهم، ينطلقون منه، لذا فإن «مَن تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أراده الله ـ عز وجل ـ فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط ؛ وذلك أن التفسير يتوقف عن صاحب الشرع، وهذا هو المنهج الواضح، والسبيل القويم، فمن وجد شيئاً من هذا فغير ملوم أن يقول بملء فيه ؛ ويتكلم بما وصل إليه علمه، ومن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل لا أدري، أو الله أعلم بمراده»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٧/ ٤١٠ .

(٢) فتح القدير: ١/ ٣١ .

فهذا ما أراه راجحاً من الرأيين، بيد أن لي وقفةً مع قول من الأقوال التي قيلت من أصحاب الرأي الثاني، وهو قول من قال : إن الحروف المقطعة إشارة إلى حروف الهجاء، أعلمَ الله بها العربَ حين تحداهم بالقرآن، أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم .

وقد ورد هذا القول عن جمع من العلماء مفسرين ولغويين، ورجحوه على غيره من الأقوال، ومن هؤلاء : قطرب[١]، والفراء[٢]، والمبرد[٣]، والزمخشري فقد قرره ونصره، وذكر أن هذا القول «من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل»[٤]، وإلى هذا القول ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن كثير وذكر: «أن كل سورة افُتتحتْ بالحروف فلا بد أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء »[٥]، ومنهم أبو السعود فقد اختاره، وذكر: «أن أهل التحقيق جنحوا إليه »[٦]، ومنهم: الزملكاني ، فقد رجح هذا القول، وأشاد به، وذكر الأسباب الذي دعته لنصرة هذا القول[٧]، وكذلك البيضاوي

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه : ١/ ٥٦ .

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير: ١/ ٢١ ، للإمام أبي الفرج ابن الجوري .

(٣) انظر: التفسير الكبير: ٢ / ٦ .

(٤) الكشاف ١/ ٩٧ .

(٥) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٤١ .

(٦) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ١/ ٢١ ، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي .

(٧) انظر: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٥٦ ، كمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني.

فقد ذكر أن هذا القول: «أقرب إلى التحقيق، وأوفق للطائف التنزيل»[١]، وإليه ذهب الراغب الأصفهاني فقد ذكر أن هذا القول: «هو الأظهر وإليه ذهب المحققون من أهل اللغة»[٢]، كما ذهب إلى هذا الشنقيطي، ذاكراً أن هذا القول «يدل استقراء القرآن على رجحانه»[٣]، وممن رجح هذا القولَ أيضاً الطاهر ابن عاشور: فقد ذكر الأقوال التي قيلت في هذه الحروف، ثم ذكر هذا القول، وبيَّن موقفه منه قائلاً: «وهوالذي نختار»[٤]، وإليه ذهب سيد قطب فقد ذكر أن في هذا القول إشارة إلى إعجاز القرآن وتحديه لهم[٥]، وإليه ذهب د. عدنان زرزور فقد ذكر أن هذا القول: «هو الذي يترجح عنده»[٦].

ولي مع هذا القول بعض الوقفات:

الوقفة الأولى: لابد أن يُعلم أن هذا القول لا يُعدُّ تفسيراً للحروف المقطعة؛ وذلك «أن القائلين بهذا القول قالوا: إنها مجرد رمز لذلك، ولا يعني هذا الخوض في معناها، أو القول بتفسيرها»[٧]، وقد أشار إلى هذا الطاهر بن عاشور في تفسيره[٨]، و أشار إليه كذلك محمد رشيد رضا[٩].

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/ ٤٥ ، لأبي سعيد عبدالله البيضاوي ، دار الفكر .

(٢) مقدمة جامع التفاسير: ١٠٥ .

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٣ / ٥ ، لمحمد الأمين الشنقيطي.

(٤) التحرير والتنوير : ١/ ٢١٢ .

(٥)انظر: في ظلال القرآن: ١/ ٥ ، سيد قطب

(٦) علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجاز القرآن: ١٥٥ ، د. عدنان زرزور .

(٧) وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور ، ٣١ ، للدكتور فهد الرومي .

(٨) انظر: التحرير والتنوير : ١/ ٢٠٤ .

(٩) انظر: تفسير المنار: ١/ ١٢٢ .

إذن فهذا القول لا يُعدُّ تفسيراً، يُؤكد هذا أننا حينا نتتبع أقوالهم حين يذكرون هذا القول وينصرونه نجد أنهم ينطلقون من نظرة استقرائية لمجيء هذه الأحرف المقطعة في القرآن، ولِمَا يأتي بعدها من الآيات، وما اشتملتْ عليه من المعاني، فهم لم ينظروا إليها مجردة، بل نظروا إلى السياق الذي جاءت فيه، نظروا إليها فوجدوا أن الذي يأتي بعدها الحديث عن القرآن الكريم، وبيان منزلته، ونفي الريب عنه، «ولهذا كل سورة افُتتحت بالحروف فلا بد أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه، وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء»[(١)]، فلما استقرَّ ذلك عندهم، وجدوا أن بين هذه الأحرف وإعجاز القرآن صلةً وثيقةً، بل وجدوا بين دفتي هذه الأحرف نفسِها إشارةً ودلالةً صريحةً على إعجاز القرآن وعظمتِه، وبعد أن تقرر هذا لديهم راحوا ينقبون ويفتشون عما انطوت عليه هذه الأحرف، وما تضمنته من إعجاز القرآن، ثم اكتشفوا كثيراً من الأسرار والدرر، وهذه هي **الوقفة الثانية** فهذا الزمخشري يذكر أن هذه الأحرف تشتمل على نصف أسامي حروف المعجم، وذكر أيضاً أن هذه الحروف الأربعة عشر تشتمل على أنصاف أجناس الحروف، ثم راح يذكر الحِكَم في مجيء هذه الحروف مفرقة على السور، ولماذا لم تأتِ جميعاً في القرآن؟ وذكر الحكمة كذلك في عدم مجيء هذه الحروف على وتيرة واحدة، وإنما جاءت بأعداد حروف مختلفة، ثم بسط القول في ذلك بأسلوب رائع و ماتع[(٢)]، فهذه إشارة من الزمخشري لدلالة هذه الحروف على إعجاز القرآن.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/٤١.

(٢) انظر: الكشاف: ١/١٠١.

ومما لحظه العلماء في ضوء هذا القول أن الحروف المقطعة قد افتتحت بها السور المكية ما عدا البقرة وآل عمران، وفي هذا إشارة إلى إعجاز القرآن وتحديه لهم، إذ قد بلغ إعراض المشركين عن القرآن غايته في الفترة المكية، كما بلغ تحدي القرآن وإعجازه لهم ذروته، فكانت هذه الحروف إشارة إلى هذين الأمرين[١]، «ولقد كان العرب الذين يتنزل عليهم هذا القرآن يدركون أن هذه الحروف دعوة لهم للمنازلة والمساجلة وأن القرآن إنما زاد في إيراده للسور التي ابتدأت بالحروف؛ لأنهم زادوا في عتوهم واستكبارهم، كيف لا وهم المشتغلون بقضية القرآن ومواجهته ليلاً ونهاراً»[٢].

ومما لاحظه العلماء في الحروف أنها جاءت على أسلوب العرب في تراكيبهم ووضع حروفهم؛ إذ إن كلماتهم منها ما هو موضوع على حرف واحد، ومنها ما هو موضوع على حرفين، ومنها ما هو على ثلاثة، ومنها ما هو على أربعة، ومنها ما هو على خمسة أحرف، ولا أكثر من ذلك، وكذلك الحروف المقطعة جاءت على هذا النمط، لحظ هذا وذكره الزمخشري[٣].

ومما لحظه العلماء في الحروف المقطعة أن الحرف الذي تستفتح به السور يكثر مجيئه في كلمات السورة كلها، ويكون ذلك الحرف فيها بارزاً ظاهراً كما ذكر ذلك الزركشي[٤]، وقد مثل لذلك بسورة (ص) فقد تكرر فيها الخصومات،

---

(١) انظر: في علوم القرآن: ١٥٦ ، د. عدنان زرزور.

(٢) الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن: ٨٧ .

(٣) انظر: الكشاف: ١/ ١٠٥ .

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٦٩ ، للإمام بدر الدين الزركشي.

ففيها: خصومة النبي ﷺ مع الكفار، والخصمان اللذان عند داود ﷺ، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم ﷺ ومن خلال هذا الملحظ يتبين اختصاص كل حرف بالسياق الذي ورد فيه، بحيث لا تصلح (ألم) بدلاً لسورة قد افُتتحتْ بـ: (ألر)، وهكذا.

ومما لحظه العلماء فيها أن نزول هذه الحروف بهذه الصورة ــ نوعاً وكماً ــ كان مقتضى طبيعة المرحلة الزمنية التي تمرُّ بها الدعوة الإسلامية آنذاك، فكانت تتفاعل مع حالة القوم من الإعراض والصدِّ عن القرآن، كما كانت تتفاعل ــ أيضاً ــ مع تحدي القرآن لهؤلاء الأقوام بأن يأتوا بمثله «ولكنهم عجزوا وأُفحموا، وإنه لكتاب عربي مبين، ألفاظه من لغتهم، وحروفه هي حروف معجمهم، تلك الحروف التي تُقرأ مقطعة، مفردة أو مركبة، فلا تعطي دلالة ما، لكنها حين تأخذ مكانها في القرآن يتجلى سرها البياني المعجز»[1]، وقد أدركتْ هذا الملحظ الدكتورة عائشة بنت الشاطىء، من خلال استقراء كامل للفترات الزمنية التي كانت تنزل فيها الحروف المقطعة، وذلك من خلال تدبر لسياقاتها، وفهم لطبيعة المقام الذي اقتضى إيثارها بهذه الفواتح، ثم بيَّنت ارتباط هذه الحروف بسير الدعوة عصر المبعث[2].

وأخيراً: فهذا شيء مما لحظه العلماء في الحروف المقطعة، وستبقى كتاباً مفتوحاً لمن يتأملها ويتدبرها؛ ليلاحظ فيها الأسرار والإعجاز لهذا الكتاب العظيم؛

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية بيانية: ١٨٠، للدكتورة عائشة بنت الشاطئ.

(٢) انظر: المصدر السابق: ١٦٠.

وذلك: «أن أسرار القرآن لا تنكشف للناس دفعة واحدة، فالقرآن مثله كمثل هذا الكون الكبير الذي لا ينطق بأسراره مرة واحدة، وإنما يتكشف منه في كل يوم جديد حسب اجتهادات البشر في فهمه، ومدى تطورهم العلمي»[1].

(١) الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن: ٢٠.

المبحث الثاني

حروف المعاني

تنقسم الحروف قسمين : حروف معانٍ، وحروف مبانٍ، فأما حروف المعاني فيُعرف المراد منها من لفظها، فهي حروف جاءت لتدل على معنى معين، كحروف العطف والجر وغيرهما، فلكل حرف معنى ليس في الآخر، فـ(الواو) مثلاً تفيد الاشتراك، و(الفاء) تفيد التعقيب، و(ثم) تفيد التراخي، وهلم جرا، أما حروف المباني فهي تلك الحروف التي تُبنى منها الكلمات، وتتكوّن منها أجزاؤها، وهي حروف الهجاء، فهي حروف مبانٍ؛ لأنها لَبِنات الكلمات، فهذه الحروف تدخل في بنية الكلمة، فإذا فُصل الحرف عن بقية الحروف التي تتكوّن منها الكلمة لم يدل على شيء، وهذا بخلاف حروف المعاني فإن لكل حرف معنى منطوياً تحته .

وقد اهتم العلماء بحروف المعاني، فذكروا تلك الحروف ومعانيها، وشواهدها، يتضح هذا الاهتمام من خلال أمرين :

الأمر الأول : ورود مقولات لهم في التنويه بشأنها، وبيان أهميتها، ومن ذلك قول الخطابي: «وهذا باب عظيم الخطر، وكثيراً ما يعرض فيه الغلط، وقديماً عُني به العربي الصريح»[(١)]، ويقول فيه ابن الأثير: «هذا موضع لطيف المأخذ، دقيق المغزى ... وهو موضع من علم البيان شريف، وقلما يُتفطن لاستعماله كما ينبغي»[(٢)].

---

(١) بيان إعجاز القرآن: ٣٣ .

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢/ ١٨٦ .

الأمر الثاني: إفراد هذه الحروف بالتصنيف والتأليف، كما ذكر العلماء معانيها وشواهدها، موضحين كذلك أسرارها في مواقعها في النصوص القرآنية، والأبيات الشعرية، ومبينين عمل كل أداة، وذاكرين المهمل منها كذلك، ومن العلماء مَن خصها بالتأليف، ومنهم مَن ذكرها مع غيرها.

ومن العلماء الذين ألفوا في هذه الحروف، وذكروا معانيها، وأسرارها البلاغية:

١ـ **ابن قتيبة**: فقد عقد في كتابه (تأويل مشكل القرآن) باباً لهذه الحروف، سمَّاه (باب تفسير حروف المعاني وما شاكلها من الأفعال التي لا تنصرف)، ثم أَخذَ في ذكر معانيها، وذكر الشواهد لها، ثم ذكرَ بعده فصلاً له ارتباط وثيق بحروف المعاني بعنوان (باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض)، ذكرَ فيه أن هذه الحروف قد تأتي في مكان البعض الآخر، ثم ذكرَ الشواهد على ذلك من القرآن الكريم، والشعر العربي.

٢ـ **الرماني**: فقد ألفَ في هذه الحروف كتاباً، سمَّاه (معاني الحروف)، ذكرَ فيه الحروف ومعانيها، مبيناً العامل منها والمهمل، وقد قسَّم هذه الحروف من حيث تركيبها، فذكرَ ـ أولاً ـ الحروفَ الأحادية، ثم الثنائية، ثم الثلاثية، ثم الرباعية، ذاكراً معنى كل حرف، وشواهدَه من القرآن الكريم، ومن لغة العرب.

٣ـ ابن جني: فقد ذكرَ في كتابه (سرّ صناعة الإعراب) أسماء الحروف، وأجناسها، ومخارجها، ثم ذكرَ كل حرف على حِدة من الألف إلى الياء، مبيناً صفاته الخاصة به، والمعاني التي يأتي عليها، موضحاً ذلك كله بالشواهد المختلفة من القرآن الكريم، ومن لغة العرب شعراً ونثراً.

٤ـ المالقي: له كتاب في ذلك (رصف المباني في حروف المعاني)، ذكرَ في مقدمة الكتاب أهمية هذه الحروف، وقد رتَّبها على حروف المعجم، بداية بالألف والهمزة، ونهاية بالياء، ذاكراً معنى كل حرف وشواهده.

٥ـ المرادي: ألَّف في ذلك كتاباً سمَّاه (الجنى الداني في حروف المعاني)، ذكرَ في المقدمة إجمالي عدد ما بلغته معاني الحروف وأقسامها، ثم ذكرَ هذه الحروف على حسب تراكيبها فذكر الحروف الآحادية، والثنائية، والثلاثية، والرباعية، والخماسية، ذاكراً الحروف التي تنطوي تحت كل قسم، ومعانيها، وشواهدها.

٦ـ الزجاجي: وكتابه في ذلك هو: (كتاب حروف المعاني والصفات)، ذكرَ في المقدمة أن سبب تأليفه للكتاب: أن سائلاً طلب منه أن يضع له كتاباً يشرح له فيه جميع معاني الحروف، فأجابه المؤلف بذكر الحروف ومعانيها، ذكرها من غير أن يراعي فيها الترتيب على حروف المعجم، ومن دون النظر ـ كذلك ـ إلى تراكيبها، وعدد حروفها، فقد بدأ الكتاب بـ(عند)، وختمه بـ(الباء)، وكان يذكر معنى كل حرف، ويدعم ذلك بالشواهد أحياناً، ثم ختمَ كتابه بالحروف التي تأتي مكان حرف آخر، مبيناً ذلك بالشواهد من القرآن الكريم، ومن الشعر العربي.

٧ـ الهروي: فقد ذكر في كتابه (الأزهية في علم الحروف) الحروفَ ومعانيها، وأحكام كل حرف، والأوجه التي يأتي كل حرف عليها، ذكرَ ذلك كله بالشواهد المختلفة من القرآن الكريم، ومن الشعر، ثم ختمَ كتابه بالحديث عن دخول حروف الخفض بعضها مكان بعض.

٨ ـ ابن هشام: فقد عقدَ في كتابه (مغني اللبيب) باباً للحروف، وذكر معانيها، وقد رتَّبها على حروف المعجم؛ ليسهل تناولها، فذكر معنى كل حرف وشاهده، والمعاني التي يخرج إليها بشواهدها.

وغير هؤلاء العلماء الكثير والكثير، فقد عُني العلماء بالحروف عناية بالغة، واهتموا بها اهتماماً فائقاً، يدل على ذلك ما أفردوا لها من تصانيف، فقد ذكرَ محققا كتاب (الحروف) للمازني[1] أنهما حين عادا إلى كتب التراجم، وما نُشر من كتب الحروف وجدوا أن المؤلفات في هذا الباب يعسر حصرها، وذكرا أن ما وقفا عليه يزيد على الأربعين كتاباً.

وقد كان تأليف العلماء في هذه الحروف ومعانيها على أضرب مختلفة، فمن العلماء من كان يذكر هذه الحروف على حسب تركيبها ووضعها، ويمثل هؤلاء: المرادي، ومنهم من كان ينطلق في ذكرها من حيث الإعمال والإهمال لهذه الحروف، كالرماني، ومنهم من كان لا يتقيد بشي من ذلك، بل كان يذكر هذه الحروف كيفما اتفق، كالزجاجي، ومنهم مَن كان يذكرها مرتَّبة على حروف المعجم، كالمالقي، وابن هشام، ومنهم مَن كان يُفْرِدُ بعض هذه الحروف بالتأليف ككتاب (الألفات) لابن خالويه، و(اللامات) لابن فارس، وانْ اختلف العلماء في التأليف في هذه الحروف على أضرب مختلفة، وأوجه متعددة فهم متفقون جميعاً على أهمية هذه الحروف، وعلو قدرها، ومكانتها في اللغة العربية.

وقد جاء اهتمام العلماء بهذه الحروف إدراكاً منهم: «أن لهذه الحروف لطائفَ وأسراراً لا تظهر إلاّ بوجودها في التراكيب اللغوية، فبها يتم مختلف

---

(١) وهما: الدكتور محمود حسني محمد، والدكتور محمد حسن عواد .

الأساليب البلاغية، كالنفي والتوكيد والاستفهام وغيرها، وذلك أن هذه الأساليب وغيرها تفتقر إلى وجود حروف المعاني، فبها تقوّم أركانها، ويتم بنيانها، وبدونها تتهاوى الأركان، ويسقط بناء هذه الأساليب، كما أن اللغة بدونها تفقد روعتها وجمالها، فلا سلامة للتعبير اللغوي إلاّ بوجودها»[١].

ولم يكن الاهتمام بهذه الحروف مقصوراً على علماء اللغة والنحو والبلاغة، بل شاركهم في ذلك علماء الفقه وأصوله؛ وذلك لارتباط حروف المعاني الشديد بهذين العلمين، فقد يترتب على هذه الحروف حكم شرعي من خلال دلالة هذا الحرف، وإيثاره على الحروف الأخرى بما تضمن من دلالة وإيحاء؛«ذلك أن حلول حرف مكان آخر قد يترتب عليه حكم مكان حكم، كما أن تقدم الحرف قد يترتب عليه حكم يخالف حكم تأخيره، ومن هنا وجب على من يتصدى للفتوى أن يدقق في الألفاظ، وخاصة في حروف المعاني حتى تكون فتواهم موافقة للشرع»[٢].

يدل على أهمية هذه الحروف وتعلقها بالحكم الشرعي أن بعض العلماء أفردوها بالتصنيف مبينين أثرها في الحكم الشرعي، وشدة تعلقها به، مُوْرِدين المسائل الفقهية الكثيرة التي يختلف فيها حكمُها الشرعي باختلاف حروف المعاني[٣].

---

(١) نظرية الحروف العاملة مبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً: ٥ د. هادي عطية الهلالي.

(٢) حروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي: ٢٠٠، د. دياب عبد الجواد عطا، دار المنار.

(٣) من ذلك: كتاب حروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي، د. دياب عبد الجواد عطا، وكتاب حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، د. محمود سعد، وغيرهما.

وبعد: فهذا شيء من جهود العلماء في حروف المعاني، ويتضح مما ذُكر من العلماء أن أكثرهم من اللغويين والنحويين، وأن أكثر جهدهم قائماً على الجمع والحصر لتلك الحروف ومعانيها، وذكر شواهدها، من غير أن يذكروا السرَّ الكامن خلف هذه الحروف، ومن دون الإشارة ـ كذلك ـ إلى لطائف مجيء بعض الحروف مكان بعض، ولكن حسبنا من هؤلاء العلماء ــ رحمهم الله ــ ذلك العمل، فقد قام بهذا العمل كثير من المفسرين والبلاغيين، فكانت لهم وقفات مع هذه الحروف، فقد بينوا كثيراً من دقائقها ولطائفها، وأسرارها البلاغية، وقد أوضحوا من خلال تلك الوقفات البلاغية أن المعنى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه الحروف، وبتغير هذه الحروف يتغير معها المعنى كله، دلالة على أن لكل حرف معنى يقوم به دون غيره من بقية الحروف، مما يقطع بدقة هذه اللغة، وسمو قدرها، كما أن هذا دليلٌ على إعجاز القرآن وبلاغته في اختياره لحروف المعاني التي تحقق المعنى المراد دون غيرها من الحروف.

ومما ذكروا في ذلك: الإشارة إلى الأسرار البلاغية الكامنة في المخالفة بين هذه الحروف فيما بينها، فقد نظروا في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبا: ٢٤]، فكان مما استرعى أنظارهم في ذلك أن حرف الجر (على) جاء مع صاحب الهدى، وأن الحرف (في) جاء مع صاحب الضلال، وكما هو مقرر في اللغة العربية أن حرف الجر (على) يفيد الاستعلاء، وأن حرف الجر (في) يفيد الظرفية والوعاء، فذكروا أن السرَّ البلاغي الكامن في هذه المخالفة بينهما هو: أن صاحب الحق؛ لقوة أمره، وظهور حجته فكأنه مستعلٍ على جواد، يركض حيث يشاء، وأما الضال فهو منغمس في ظلام دامس،

لا يدري أين يتوجه، ولا كيف يفعل، فقد أحاطت به الضلالة من كل جانب إحاطة السوار بالعصم[١].

وهكذا جاء الفعل مع صاحب الحق، مُعَدَّى بـ(على) الدالة على الاستعلاء؛ إشارةً إلى كون صاحب الحق مستعلياً دائماً على نفسه، وعلى أعدائه، كما جاء الفعل مُعَدَّى بحرف الجر (في) الدالة على الظرفية مع صاحب الضلال؛ دلالة على أن هذه هي حالته دائماً وأبداً، فهو يتخبط في الشبهات والشهوات، فهي ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، كما أنه ليس بخارج منها أبداً، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

كما كان لكثير من البلاغيين والمفسرين وقفة مع تعدي الأفعال بالحروف، فذكروا أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، فقد وقفوا متأملين قول الله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فكان مما ذكروا في ذلك: أن السرَّ البلاغي في تعدية الفعل بـ(في) دون (اللام)، فبينوا: أن تعدية الفعل بحرف الجر (في) دلالة على مبادرة أولئك الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في الخيرات، وأن ذلك لم يكن حالة طارئة منهم، أو كان ذلك منهم ثم انقطع، بل جاء ذلك الحرف مبيناً أنهم كانوا مداومين على المسارعة في الخيرات، مستقرين على تلك الحالة، من غير كلل ولا انقطاع، ومن هنا جاء الفعل مُعدَّى بهذا الحرف إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، ولا عجب في ذلك؛ «فكثيراً ما يتعدى الفعل (أسرع) بـ(في)؛ لما فيه من معنى الجد والرغبة»[٢].

---

(١) انظر: الطراز: ٢/٥٣، للعلوي

(٢)انظر: روح المعاني: ١٧/٨٧.

كما كان للبلاغيين والمفسرين وقفة مع تعاقب الحروف بعضها مكان بعض، إذ كثيراً ما يأتي في كلام العرب حرف، والمراد به حرف آخر، فكان هذا الأمر لافتاً للنظر، مستوجباً ـ كذلك ـ أن يكون له سرٌّ بلاغي، وأثر في المعنى، ومما أوردوا في ذلك قول الله ـ تعالى ـ ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، فذكروا أن معنى (في) في هذه الآية هو: (على)، ثم ذكروا سرَّ التعاقب بين هذين الحرفين، فكان مما ذكروا في ذلك: أن المقام هو الذي اقتضى حرف الجر (في) على غيره، فهو الأبلغ في هذا السياق، كما أن هذا الحرف وحده هو الذي يحقق المعنى المراد، والغرض المقصود، وبيان ذلك: أن مجيء (في) مكان (على) دلالة على عِظم الحنق، وشدة الغيظ الذي يملأ صدر فرعون على هذه الزمرة المؤمنة؛ وذلك أن صلبهم فوق جذع النخل لا يشفي غليله، ولا يطفئ نار حقده، لذا فهو يريد من هذا الصلب بهذه الهيئة أشده وأعظمه، ذلك الصلب المتمكن، كتمكن الظرف بمظروفه، المستقر فيه الذي يحيط فيه من جميع جوانبه، كما أن فيه دلالة على رغبة فرعون في إبقاء المؤمنين زمناً طويلاً وهم مصلوبون [(١)]، ولو كان يريد مجرد الصلب لجاء الفعل مُعَدَّى بـ(على)؛ وذلك أن الصلب يكون فوق الجذع[(٢)]، وليس داخله، ولكن عدو الله أراد الصلب المتمكن المحيط بهم.

وهذه وقفة مع بعض آيات القرآن الكريم أبين فيها بلاغة هذه الحروف، والأثرَ الذي تركته في الدلالة على المعنى المراد تحقيقه من خلال إمعان النظر في

(١) انظر: إرشاد العقل السليم: ٦/٢٩، لأبي السعود.

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٦/٢٦٥، للطاهر بن عاشور.

دلالتها، والنظر ـ كذلك ـ في السياق الذي جاءت فيه، والغرض العام المراد تقريره وتحقيقه.

يذكر ـ سبحانه ـ في بيان الحكمة من إنزال القرآن قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾[النساء : ١٠٥].

في تأكيد الخبر اهتمام بشأن المنزَّل والاعتناء به[١]، يدل على هذا الاهتمام وتلك العناية إسناد النزول إلى ضمير العظمة، وفي هذا تعظيم لأمر المسند وهو الله عز وجل، فلا يخفى ما تضمن هذا التعبير«من الإجلال والعظمة لله ما تتقاصر دونها كل عظمة ومنزلة»[٢].

وقد جاء الفعل مُعدَّى بـ(إلى) مع الإنزال، والمتأمل في آيات حديث القرآن في بيانها لإنزال القرآن يلحظ أنها حيناً تتعدى بـ(إلى) وحيناً بـ(على) ومع تأملها وتدبر سياقها الذي جاءت فيه ندرك أن أكثر المواضع التي«ذُكر فيها إنزال القرآن على النبي ﷺ يكون الفعل فيها مُعَدَّى بـ(على)[٣]، ومن أمثلة ذلك قوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾ [الكهف: ١]، وقوله: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [النحل: ٨٩]، وليس هذا خاصاً في هاتين الآيتين فقط، بل إنّ«أكثر ما جاء ذكر إنزاله على الناس جاء مُعدَّى بـ(إلى)»[٤]، ومن أمثلة ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾[النساء: ١٧٤]

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٠٤/٥، للألوسي .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥/ ٣٧٨ ، البرهان الدين البقاعي .

(٣) من أسرار التعبير القرآني: حروف المعاني: ١٠٥ ، د. عبدالفتاح لاشين.

(٤) المصدر السابق: ١٠٥ .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، يوضح هذا ويُؤكده أن (إلى) للانتهاء إلى الشيء من أي جهة، والكتب المنزلة منتهيةٌ إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً، وأما (على) فإنها مختصة بجانب الفوق، وهو مختص بالأنبياء؛ لأن الكتب منزلة عليهم، لذا فإذا ذُكر الإنزال مُعَدَّى بـ(إلى) ففيه تكليف للنبي ﷺ بإبلاغه وبيانه للناس، وإذا ذُكر الإنزال مُعَدَّى بـ(على) ففيه تخفيف عن النبي ﷺ، وتشريف له بأن خُصَّ بهذا الكتاب[١]، وهكذا يكون لحرف المعاني ـ بدلالة كل حرف ـ غرض تقوم به في إعلاء شأن القرآن وبيان أهميته، دلالة على إعجاز القرآن في توظيف هذه الحروف وتطويعها ؛ لإبراز مكانة القرآن ، وبيان عظمته .

وقد تقدم الجار والمجرور (إليك) على المفعول (الكتاب) وفي هذا التقديم تشريف للنبي ﷺ أي فقد نزل القرآن إليك أنت خاصة من بين سائر الخلق، وأنت أكملهم خلْقاً وخلُقاً[٢].

كما أن في هذا التقديم تشويقاً للسامع وتلهفاً لمعرفة هذا الذي أُنزل ؛ فإن معرفة الشيء بعد ترقب وتشوق تجعله يستقر ويثبت [٣]، كما في مجيء (الكتاب) معرفة دليل على أنه الكامل الجامع لكل خير المشتمل على المنافع والمصالح الدينية والدنيوية[٤] .

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : ١/ ٤٠٦ .

(٢) انظر: نظم الدرر : ٣٨٧/٥ .

(٣) انظر: روح المعاني : ٥/ ١٤٠ .

(٤) انظر: نظم الدرر : ٣٨٧/٥ .

ثم بيّن ــ سبحانه ـ أن إنزال هذا الكتاب كان (بالحق) أي هو حق من الله لا عوج فيه ولا ميل، وكلمة(بالحق) في محل نصب على الحال، وصاحب الحال هو الكتاب، والمعنى: أنا أنزلنا هذا الكتاب ملتبساً بالحق[1]، وقد بينتْ هذه الجملة الهيئة التي عليها القرآن في نزوله، وقد دل على هذه الحالة وتلك الهيئة حرف الباء في كلمة (بالحق) بما تضمن من معاني الإلصاق والملابسة ومن هذه الدلالة تتبين صفة القرآن التي نزل عليها .

ولما ذكر ـ سبحانه ـ إنزال الكتاب ذكر الحكمة من ذلك في قوله: ﴿ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي أنزلناه إليك لكي تحكم بين الناس، فالفعل (لتحكم) متعلق بـ (أنزلنا)، واللام للتعليل، فقد بينت الحكمة من إنزال هذا الكتاب، وهي الحكم بين الناس، وهكذا تتضافر حروف المعاني في هذه الآية ـ بما فيها من دلالات وإيحاءات متعددة ـ لتظُهِر مكانة هذا الكتاب العزيز، وتُعلي من شأنه، كما أنها تبين الحكمة من إنزال القرآن الكريم والغرض منه، وقد احتوى النظم القرآني هذه الحروف، ووظَّفها التوظيف اللائق بها في حديثه عن القرآن .

إذن فقد نزل الكتاب من أجل الحكم بين الناس كلهم، ومن هنا يبرز السرُّ في اختيار لفظة (الناس) على ما سواها من الألفاظ، فقد جاءت مطلقة دون تقييد، ولا مخصصة طائفة دون أخرى، بل هو للناس عامة؛ فليس هو خاصاً بجنس دون آخر، بل للناس أجمعين، كما يبدو هذا المعنى جلياً في سبب نزول هذه الآية، فقد جاء في سبب نزولها : «أن رجلاً من الأنصار يُقال له طعمة بن أبيرق سرق درعاً من جارٍ له يُقال له قتادة بن النعمان، وكان الدرع في جراب

(١) انظر: الدر المصون : ٢/ ٤٢٣ .

في دقيق، فجعل ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق، ثم خبأها عند رجل من اليهود، فالتُمستْ الدرع عند طعمة فلم تُوجد عنده، وحلف لهم واللهِ ما أخذها، وماله به من علم، فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه ، فقال : دفعها إليَّ طعمة بن أبيرق، فقالت بنو ظفر ـ وهم قوم طعمة ـ : انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فكلموه في ذلك، وسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتُضح، وبرىء اليهودي، فهمَّ رسول الله أن يفعل ـ وكان هواه معهم ـ[1]، وأن يعاقب اليهودي، فأنزل الله هذه الآية »[2]، ومن معرفة سبب نزولها يظهر السر في اختيار هذه اللفظة (الناس) فقد جاءت هذه اللفظة لتدل عموم ـ تأكيداً على طبيعة الدعوة المحمدية فإنها للخلق كافة .

ثم أمر ـ سبحانه ـ رسوله محمداً ﷺ أن يكون حكمه في الناس بما أوحى الله إليه وشرعه في قوله : ﴿ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ والباء في قوله : ﴿ بِمَآ ﴾ للآلة، جعل ما أراه الله إياه بمنزلة آلة الحكم ؛ لأنه وسيلة إلى مصادقة العدل، ونفي الجور»[3] .

والرؤية هنا عرفانية، وُسَمي ذلك العلم الذي علمه الله رؤية ؛ لأن العلم اليقيني المبرأ من الريب والخطأ يكون جارياً مجرى الرؤية في القوة والظهور ؛ لما فيه من الجلاء والوضوح فكأنه يراه بعينه[4].

---

(١) هكذا وردت (وكان هواه معهم) وفي النفس منها شيء ، إذ إن رسول الله ﷺ منزه عن هذا، كيف وقد عصمه ربه، كما أن في هذه العبارة شيئاً من ترك الأدب مع رسول الله ﷺ .

(٢) أسباب النزول: ١٠٣ ، ،لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي

(٣) التحرير والتنوير: ١٩٣/٥ .

(٤) انظر: تفسير المنار : ٣٩٤/٥ .

ولما بيّن ـ سبحانه ـ حكمة إنزال الكتاب عقَّب على ذلك بقوله: ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ وهو نهي يتوافق مع حكمة إنزال هذا الكتاب؛ وذلك أن المخاصمة عن الخائنين أو المدافعة عنهم مناقضة لهذه الحكمة، وقد تقدم الجار والمجرور (للخائنين) على خبر تكن (خصيماً) وفي هذا التقديم زيادة اهتمام بهذا النهي وتعظيمه، وتعظيم لشأن الخيانة، وجرم الخائنين، فكأن النهي منصب على الخائنين بألاّ يعيرهم انتباهه، وألاَّ يأخذوا شيئاً من وقته، ولا يلتفت إليهم أبدا، بلْهَ أن يكون مخاصماً عنهم، وذائداً عن حماهم.

واللام في (الخائنين) «للتعليل أي لا تكن لأجلهم، وقيل هي بمعنى (عن) أي لا تكن عنهم»[1]، ومهما كان معناها فإن هذا الحرف أو ذاك ليحمل في طياته التغليظ الشديد أن يكون من أجل خائن، أو عن خائن مخاصماً ومدافعاً، يدل على هذه الغلظة، وتلك الشدة أسلوب الآية الجزل بما فيها من صرامة وجزم «فإننا نحس في التعبير صرامة يفوح منها الغضب للحق، والغيرة على العدل»[2].

وفي موضع آخر يخبر ـ سبحانه ـ أنه أنزل الكتاب بأشرف اللغات وأفصحها، مبيناً الحكمة من إنزاله قائلاً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٣ ـ ١١٤].

---

(١) روح المعاني: ٥/ ١٤٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/ ٧٥٤.

أي أنزلنا القرآن بعظمتنا وقدرتنا، يدل على ذلك إسناد الإنزال إلى ضمير العظمة، وقد جاء إضمار القرآن هنا من غير سبق ذكر له و هذا دليل على أن القرآن حاضر في الأذهان، قريب من القلوب عالق بها، فهو لايحتاج إلى ما يلفت إليه، ويذكِّر به[١].

وفي هذه الصيغة (أنزلناه) ـ بدلالة همزة التعدية ـ دليل على أن القرآن لم يكن يختلقه محمد ﷺ من عند نفسه كما يزعم ذلك كفار قريش، فمجيئه بهذه الصيغة رد على مزاعمهم الباطلة، ودحض لشبههم، وقد أظهر هذا المعنى وأبرزه همزة التعدية، ومن هنا تبرز بلاغة القرآن في توظيفه حروف المعاني في بيان حقيقة القرآن، وإعلاء شأنه، وقد جاء الاسم (قرآناً) مصدراً، والمراد به اسم المفعول أي المقروء، وفي تسميته بالمصدر مزيد حفاوة بهذا المنزَّل، وقد جاء ت لفظة (قرآناً) نكرة ؛ «وذلك لإفادة الكمال أي أكمل ما يُقرأ»[٢].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ في قوله (عربياً) أنه أنزل القرآن بهذه اللغة الشريفة ؛ وذلك لتفهمه العرب، وتفقه معانيه، ولتقف على إعجازه ونظمه ؛ ليكون ذلك أبلغ في الحجة والإعجاز[٣]، كما أن فيه«تعريضاً بالامتنان على العرب، وتحميقاً للمشركين حيث أعرضوا عنه وكذبوا به»[٤]، مع كونه نازلاً بلغتهم التي بها يتخاطبون، وبها يفخرون ويشرفون على القبائل كلها .

---

(١) انظر: روح المعاني : ١٦/ ٢٦٧ .

(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٤ .

(٣) انظر: التفسير الكبير: ٢٢ / ١٢١ .

(٤) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٤ .

ثم قال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾ أي :«بما لنا من العظمة والكبرياء ذكرنا في هذا القرآن الوعيد مكررين ذلك بأساليب مختلفة وأفانين متنوعة ومؤتلفة»[(١)] ؛ بغية الاتعاظ والذكرى، عطفت جملة ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾ على قوله: (أنزلناه) وُصل بين الجملتين؛ وذلك لاتفاقهما في الخبرية، وفي المعنى كذلك، إذ إن فيها إشارةً إلى ما تضمنه القرآن الكريم، وبياناً للصفة التي نزل بها، كما أوضحت ـ كذلك ـ أن هذا التصريف كائن في القرآن، ومستقر فيه، فليس هو أمراً طارئاً أو عابراً، كلا فهو أمر ثابت في القرآن مركوز فيه، ومتمكن فيه ومستقر، وقد أوضح هذا المعنى وأكده ـ أيضاً ـ دلالة الحرف (في)، وفي هذا بلاغة للقرآن وإعجاز، بأن أودع معانيه هذه الحروف، فأصبح كل حرف فيه مغنياً وكافياً عن الأسطر والصفحات بما تضمن من دلالة وإيحاء .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ غاية إنزال القرآن، والحكمة منه في قوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ تُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ وذلك «أن الله لما ذكر الوعيد أتبعه بذكر ثمرته فقال : لعلهم أي ليكونوا بذلك على رجاء أن يتقوا أو يكونوا في عداد من يجدد التقوى كل حين»[(٢)]، وهذا التصريف في القرآن المتضمن تكرار المواعظ والزواجر من مزيد رحمة الله بعباده، ولطفه بهم؛ وذلك أن في تكرارها موعظة لهم وزاجراً عما هم فيه من الغفلة والإعراض[(٣)]، ولما كان القرآن مُحْدِثاً عند تلاوته الذكر والتأمل أُضيف إليه في

(١) نظم الدرر: ١٢/ ٣٥٠ .

(٢) المصدر السابق : ١٢/ ٣٥٠ .

(٣) انظر: حاشية الصاوي: ٣/ ٦٦ .

النظم في قوله: ﴿أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ أي لعل القرآن يحدث لهم ذكراً[١]، ومن هنا جاء التعبير بلفظة (يحدث)، كما أن في هذه اللفظة «إيماءً إلى أن الذكر ليس من شأنهم قبل نزول القرآن، فالقرآن هو الذي أوجد فيهم ذكراً لم يكن من قبل»[٢].

وقد يقول قائل: ما حكمة إضافة الذكر إلى القرآن، في حين لم تُضف التقوى إليه؟ تتضح الإجابة عن هذا من خلال المعنى المراد من هذه الجملة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ وذلك أن المعنى: «أنا أنزلنا هذا القرآن ليستمر المتقون على تقواهم، وإن لم يوجد المتقي فلا أقل من أن يحدث لهم القرآن عظة واعتباراً حين يسمعونه»[٣].

وقد يُقال: إن كلمة (أو) للمنافاة، ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر، بل لا يصح الاتقاء إلاَّ مع الذكر فما معنى كلمة (أو)؟ فيقال: إن (أو) هنا بمعنى (الواو)[٤]، فيكون المعنى: لعلهم يتقون ويحدث لهم ذكراً، وذلك أن هذين الأمرين متلازمان لاينفصل أحداهما عن الآخر بل يُكَمِّل كل واحد منهما الآخر، كما يبدو هذا المعنى و يتضح من دلالة الحرف (أو) بهذا المعنى.

و(لعل) للرجاء أي «إن حال القرآن أن يُقرِّب الناس من التقوى والتذكر»[٥]، وفي مجيء الحرف (لعل) إشارة إلى الحكمة من إنزال القرآن، والغاية منه، فقد نزل القرآن بهذا اللسان العربي المبين رجاء أن يكون محدثاً لهم التقوى أو ذكرى وموعظة.

---

(١) انظر: التفسير الكبير: ٢٢/ ١٢١.

(٢) التحرير والتنوير: ١٦ / ٣١٥.

(٣) حاشية زاده: ٣/ ٣٣٣.

(٤) انظر: تأويل مشكل القرآن: ٥٤٣، لأبي عبدالله بن مسلم بن قتيبة.

(٥) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣١٥.

وهكذا تتوافر حروف المعاني في النص الواحد وتتضافر جميعاً ـ بدلالة كل حرف، مع بقية الأدوات والأساليب المختلفة في الآية ـ لبيان مكانة القرآن، وإعلاء شأنه، وإظهار الحكمة من إنزاله بغية تحقيقها، وإقناع الناس بها.

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ إنزال القرآن عقّب عليه بقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ وذلك أنه ـ سبحانه ـ «لما عظَّم أمر القرآن أردفه بأن عظّم نفسه تنبيهاً على ما يلزم خلقه من تعظيمه، وإنما وصفه بالحق والملك؛ لأن ملكه لا يزول ولا يتغير»[(١)].

و(تعالى) بمعنى تقدس وارتفع، وقد جاءت بصيغة التفاعل؛ دلالة على فرط العلو ومزيده، فقد بلغ من العلو والسمو ما لا تبلغه العقول، ولا تحيط به الأفهام[(٢)]، وفي اختيار هذين الوصفين تعريض بمُلْك البشر الذي يؤول إلى الزوال والفناء، بخلاف ملكه فهو الدائم المتصرف فيه بمقتضى حكمته وعدله، كما أن ملكه حق قائم على حق[(٣)].

ثم قال سبحانه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[(٤)]، عُطفت هذه الجملة على قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾

---

(١) التفسير الكبير: ٢٢/ ١٢١.

(٢) انظر: نظم الدرر: ٢١/ ٢٥٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٦١ / ٦١٣.

(٤) هناك معنيان لهذه الآية:

الأول: «أن الله علّم نبيه كيف يتلقى القرآن، قال ابن عباس: كان ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على الحفظ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك، وأنزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ ...﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [سورة القيامة: ١٦ـ ١٧] أي نحن نجمعه في صدرك ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً» (تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٨٥).

الثاني: «أن معناها لاتُقرئه أصحابك ولا تُمْلِه عليهم حتى يتبين لك معانيه» (معالم التنزيل: ٣ / ٢٣٣).

وصُل بين الجملتين ؛ وذلك لاتفاقهما في الإنشائية من حيث المعنى ، وذلك أن الجملة الأولى وإن كانت في صورة الخبر إلاّ أنها تحمل في طياتها الإنشاء ، وهو الأمر ، إذ إن مضمونها أمرٌ بتقديس الله ، وتنزيه عن كل نقص وعيب ، ومن هنا جاء الوصل بينهما .

وقد أسند الفعل (يُقضى) إلى ما لم يُسم فاعله ؛ وذلك استغناء عن ذكر الفاعل ؛ وذلك للعلم به وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ولتركيز الاهتمام على فعل القضاء ، والعناية بشأنه في هذا المقام .

وقد وردتْ قراءة أخرى عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهي : « من قبل أن نَقضي إليك وحيَه» وذلك ببناء الفعل للمعلوم ، وتكمن بلاغة هذه القراءة ببناء الفعل (نقضي) للمعلوم بذكر الفاعل بنون العظمة لله عز وجل [1] ، ففيها إظهار لفعل القضاء مسنداً إلى الله ـ تعالى ـ على أسلوب التعظيم ؛ تنويهاً بشأنه ، وعظم أمره ، وفي ذلك إعلاء من شأن الوحي وإبراز لأهميته في شأن الرسول ﷺ ، وفي شأن قومه والناس أجمعين ، وينبني عليه الإغراء به ، وشدة الحرص عليه تبليغاً له واستمساكاً بمضامينه .

وقد تقدم الجار والمجرور (إليك) على نائب الفاعل (وحيه) ، وذلك أن النهي متوجه للنبي ﷺ ، فالمراد نهيه عن هذا العمل ، فبدأ به وتوجه إليه .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآية آمراً نبيه بالتزود من العلم في قوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ و الجملة معطوفة على ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ ، وُصل بين الجملتين ؛ وذلك لاتفاقهما في الإنشائية ، فالأولى نهي ،

(١) انظر : الدر المصون : ٥/ ٥٩ .

والثانية أمر، وفي هذا العطف «تلطف بالنبي ﷺ إذ أُتبع نهيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة في العلم»[(١)] .

كما في حذف (ياء) النداء دلالة على قربه ـ سبحانه ـ من الداعين، فهو أقرب إليهم من حبل الوريد، فلا مكان إذن للوسائط ولو بهذه الحرف (ياء) المشعر بالبعد والمسافة، كما أن في هذه الحذف إيماءً إلى سرعة الاستجابة، وكما يُلحظ هذه الأمر أيضاً من لفظة (الرب) المتضمنة صفات الربوبية كلها، ففي إيثارها هنا على ما سواها من الصفات دليل على ما يغمر به الرب عباده من اللطف ، والرعاية ، والحفظ .

وفي تنكير (علماً) دلالة على العموم والشمول، فهو دعاء للتزود من العلم كل العلم الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة، ولشرف هذا العلم ومكانته أمر- سبحانه - رسوله ﷺ أن يسأله الزيادة فيه وما أُمر رسول الله ﷺ بطلب الزيادة في شيء إلاَّ في العلم، وفي هذا الأمر لرسول الله ﷺ تربية للأمة، وتنشئة لها على طلب العلم، والزيادة فيه ؛ ففي هذا العلم نور وبصيرة للأمة في حياتها، وإن لها فيه سلاحاً ضد أعدائها.

وقد استجاب رسول الله ﷺ لأمر ربه غاية الاستجابة فلم يزل في ازدياد من العلم حتى توفاه الله .

وفي موضع آخر ذكر لعلو القرآن الكريم، وتعداد لأسمائه وصفاته يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾

(١) التحرير والتنوير: ١٦ / ٣١٧ .

صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢-٥٣] .

يخاطب الله رسوله ﷺ بضمير العظمة تعظيماً لنفسه وإجلالاً بأن هذا الذي أنزله عليه وحي من الله أوحاه إليه، كما يُلمح هذا المعنى من إضافة الإيحاء إلى الله.

ثم ينعت - سبحانه - هذا الوحي المنزَّل بأنه روح، فالقرآن روح تحيا به الأجساد والأرواح من الكفر والجهل، فهو «روح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأرض بوابل السماء، تحيا بالقرآن القلوب المجدبة فتستنير بعد ظلامها، وتستقيم بعد نكستها وزيغها»[(١)].

وفي مجيء لفظة ﴿ رُوحًا ﴾ نكرة تعظيم للوحي وتشريف له، وفي هذا دلالة على أن هذا الكتاب هو الذي «أبكم الفصحاء، وأعجز البلغاء، وحيَّر الألباب »[(٢)]، وقد زادتْ النكرة المنزَّل تعظيماً وتشريفاً، ومما زاده تشريفاً وزانه أنْ كان المنزَّل بأمر من الله، كما ذكر ذلك مَن أنزله في قوله: ﴿ أَمْرِنَا ﴾، فهو بأمر الرب العليم الخبير، فقد نزل بأمر الله وحكمته اللائقة بعظمته وجلاله المعبَّر عنها بضمير العظمة في قوله بـ ﴿ أَمْرِنَا ﴾.

و(من) في قوله: (من أمرنا) لابتداء الغاية، فقد بدأ إنزال هذا الكتاب الخالد منه - سبحانه -، وتكمن بلاغة هذه المعنى أن فيه رداً على مَن يزعم أن محمداً ﷺ هو الذي اختلق القرآن من عند نفسه، أو أنه اكتتبه من غيره فهو يُملى عليه بكرة وأصيلاً[(٣)].

---

(١) الهدى والبيان في أسماء القرآن: ٢ / ٤٤ ، لفضيلة الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي ، .

(٢) نظم الدرر: ١٧ / ٣٦٢ .

(٣) وقد ذكر بعض العلماء أن (من) هنا تبعيضية ، والمعنى أن هذا القرآن بعض ما نوحيه إليك (انظر: حاشية الصاوي: ٤/ ٤٥)، ولكني أرى أن الأصح في معناها ما ذُكر في متن الموضوع ؛ لِمَا تشتمل عليه من أسرار بلاغيه ومعانٍ، لا تكون إذا كانت (من) تبعيضية، والله أعلم .

وقد جاء هذا الأمر مضافاً إلى الله في قوله: ﴿أَمْرِنَا﴾ وهي إضافة تشريف وتعظيم، والناظر في هذه الألفاظ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يجد فيها «تآلفاً واضحاً بيناً في النطق والنغم، فإن مَن يتلوها أو يصغي إليها ليدرك ما فيها من تآلف في النطق، وتآخٍ في الجرس والنغم، ناهيك عما في معاني هذه الألفاظ من تآخٍ، فلكل واحدة معنى تلتقي مع أختها، و تأتلف فتعطي صورة بيانية رائعة»[1].

ثم يذكر ـ سبحانه ـ عظيم منَّته على رسوله ﷺ بذكر الحالة التي كان عليها قبل الرسالة، وإنزال القرآن الكريم في قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ ولم تُعطف هذه الجملة على ما قبلها؛ وذلك أن بينهما كمال الاتصال، وذلك أن الجملة الثانية بيان لحال المصطفى ﷺ قبل التنزيل، وبين المبيَّن والمبيِّن كمال اتصال لا يسمح بدخول الواو المؤذنة بالتغاير بينهما.

يخبر ـ سبحانه ـ نبيه مبيناً له، ومذكراً ما كان عليه قبل البعثة، بأنه لم يكن يعلم القرآن العظيم وما كان يعلم الإيمان[2] الذي هو تفاصيل هذا الدين بشرائعه وأحكامه إلاَّ بعد أن أعلمه الله، وأطلعه عليه[3].

---

(١) قبس من البيان القرآني: ٩٤ ، د. محمد حسن شرشر.

(٢) انظر: أضواء البيان: ٧/ ٢٠١.

(٣) اختلف العلماء في هذه الآية مع إجماعهم على أنه لا يجوز أن يُقال: إن الرسل ﷺ كانوا قبل الوحي على الشرك أو الكفر، فهم مجمعون على عصمتهم قبل الرسالة، وذكروا أوجهاً كثيرة في المراد بعدم درايته ﷺ للإيمان، انظر: التفسير الكبير ٢٧/ ١٩٠، زاد المسير: ٧/ ٢٩٩، لباب التأويل في معاني التنزيل: ٦/ ١٢٩، للخازن.

وقد قُدم ذكر (الكتاب) على (الإيمان) ؛ وذلك أن معرفة الإيمان بتفاصيله الدقيقة أمور غيبية موقوفة على الشرع والنقل لا تُعرف إلا بواسطة الكتب المنزلة من عند الله، ومن هنا جاء تقديمها على الإيمان .

ولقائل أن يقول: ما الحكمة من الإخبار بهذه الجملة المتضمنة لبيان حال النبي ﷺ قبل نزول القرآن؟ الحكمة في الإخبار بهذه الجملة أن فيها تذكيراً للنبي ﷺ بمقدار النعمة والمنَّة التي خصَّه الله بها، كما أن فيها دليلاً على صدق نبوته، وأنها من عند الله، وذلك أنه أتى بشيء لم يكن يعلمه من قبل ولا تَعلَّمَه [١].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ الحكمة من الإنزال في قوله: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ «والاستدراك بـ(لكن) ناشيء على ما تضمنته جملة ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ لأن ظاهر نفي دراية الكتاب أن انتفاءها مستمر فاستُدرك بأن الله هداه بالكتاب وهدى به أمته، فالاستدراك واقع في المَحَزّ»[٢]، ومن هنا تبرز بلاغة القرآن وحسن نظمه في توظيف هذه الحروف لخدمة المعنى، وللتحقيق الغرض المنشود منها على أكمل وجه .

ثم يذكر ـ سبحانه ـ أنه جعل القرآن ـ الذي أنزله ـ نوراً يُستضاء به في الظُلَم والمدلهمات، كما يدل على هذا المعنى إسناد الأمر إلى ضمير التعظيم بما توحيه من عظمة، فالقرآن نور للمسلم في حياته يبدد به ظلمة الشك والجهل والحيرة، فالقرآن روح ونور «روح لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، فهما متلازمان»[٣].

---

(١) انظر: كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: ٢٤/٤ .

(٢) التحرير والتنوير: ٢٥/ ١٥٣ .

(٣) التفسير القيم: ٤٣٤، لابن القيم.

وقد اختلف العلماء في عود الضمير في قوله: (جعلناه) فقال بعضهم: «أراد القرآن والإيمان، وأما عود الضمير على واحد منهما، فهو من قولهم: إقبالك وإدبارك يغمني؛ ولأنه راجع إليهما معاً؛ وحسُن ذلك الإفراد؛ لأن معناهماواحد»[(١)].

وقيل: إنه راجع إلى القرآن دون الإيمان؛ لأنه هو الذي تُعرف به الأحكام[(٢)]، وهو الصواب فهو عائد على الروح، أي جعلنا ذلك الروح الذي أوحيناه إليك نوراً.

وفي مجيء الفعل (نهدي) مضارعاً من الدلالة ما ليس في غيره لو جاء مصدراً أو غيره إذ لم يقل (جعلناه نوراً وهداية) بل جاء مضارعاً دلالة على تجدد حدوث الهداية وتكرارها من الله بسبب القرآن العظيم فكل جزء من القرآن وسورة بل كل آية منه فيها هداية ودلالة إلى الصراط المستقيم ، فمجيء الفعل مضارعاً دليل على تكرار هذه الهداية وكثرتها.

كما أن في إسناد الهداية إلى الله في قوله: (نهدي) بضمير التعظيم الدال على العظمة دليلاً ـ أيضاً ـ على عظم هذه الهداية، وعظم نفعها للعباد، فهي هداية من الله الخبير بما يصلح النفوس ويُهذِّبها.

والباء في قوله: (نهدي به) سببية، أي إن الهداية حاصلة بسبب القرآن الكريم بعد توفيق الله ومشيئته، والإضافة في قوله: (عبادنا) لتشعر بقربه ـ سبحانه ـ من عباده ورحمته بهم وتوفيقهم لهذه الهداية، ودلالتهم إلى سبيل

---

(١) التفسير الكبير: ٢٧/ ١٩١ .

(٢) انظر: المصدر السابق: ٢٧ / ١٩١ .

الرشد، ولكن هذه الهداية لا تكون لأي شخص لم يسعَ في تحقيق أسبابها، ولم يسلك في طلبها مسالك النجاة من العمل الصالح، ومجاهدة النفس والشيطان، بل إن هذه الهداية لا تكون إلاَّ لمن اصطفاه الله وهداه، ووفَّقه لسبيل الرشد والسداد، فهذه الهداية لصنف فريد من عباد الله، وقد أوضح هذا المعنى وبيَّنه حرف الجر (من) في قوله: (من عبادنا) بدلالته على التبعيض.

والمتأمل لهذه الجملة ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يدرك ما توافر فيها من حروف المعاني بدءاً من حرف الاستدراك (لكن) ومروراً بالباء السببية (به) ونهاية بمن التبعيضية (من)، ثم يدرك ـ أيضاً ـ إعجاز القرآن في استخدامه لها، وتوظيفه إياها التوظيف اللائق بأسلوب القرآن الكريم، فقد وقع كل حرف منها في موضعه المناسب، بحيث لا يُستغنى عنه، أو يُستبدل به غيره، لِمَا فيه من دلالة تخدم المعنى وتُبرزه.

ولما أثبت ـ سبحانه ـ هدايته بالقرآن الكريم عرَّج على رسوله ﷺ ذاكراً ـ أيضاً ـ أنه يهدي إلى صراط مستقيم في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عُطفت الجملة على الجملة التي قبلها ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ وذلك لاتفاقهما في الخبرية، ولاتفاقهما ـ أيضاً ـ في المعنى فالقرآن هادٍ إلى الصراط المستقيم، وكذلك رسول الله ﷺ يهدي ـ بإذن ربه ـ إلى الصراط المستقيم، وفي هذا ثناء من الله على رسوله، وتنويه بشأنه، ورفع لمنزلته[1].

جاء الخبر مؤكداً بـ(إن واللام) في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ وفي هذا التأكيد اهتمام بما تضمنه الخبر الحامل في طياته الإخبار بهداية رسول الله ﷺ إلى الصراط المستقيم.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٥٤،

وقد حُذف مفعول (تهدي) ؛ وذلك لإفادة العموم، فهداية رسول الله ﷺ لكل الناس على اختلاف نحللهم ومللهم، فالهداية لهم جميعاً على تنوع مشاربهم، ولو ذُكر المفعول لانحصرتْ الهداية في إطار ذلك المفعول سواء كان طائفة معينة، أو أشخاصاً معينين، وفي هذه منافاة لطبيعة الدعوة المحمدية العامة لكافة الخلق .

وتنكير كلمة (صراط) دلالة على تعظيمه، وبيان لمنزلته ؛ وذلك أن الصراط هو الإسلام والسبيل القويم الذي لا ميل فيه ولا اعوجاج[١].

وفي وصف الصراط بأنه (مستقيم) بيانٌ لطبيعته وكنهه، فهو مستقيم خالٍ من الانحرافات والأهواء التي تصرف سالكيه، كما أنه واضح الحجة، لا يتنكبه صاحبه، ولا يزيغ عنه[٢].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٥٤ .

(٢) وقد وردتْ آية في كتاب الله تنفي الهداية عن رسول الله ﷺ ، وهي قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] و في ظاهرهما تعارض، فكيف يُجمع بينهما؟ يُجمع بينهما إذا علمنا أن الهداية تنقسم قسمين: هداية عامة، وهداية خاصة، فالهداية العامة هي البيان والدلالة الإرشاد، وهذه هي المثبتة للنبيين، فهو المبين عن الله ، والدال إلى دينه وشرعه، فقد بيّن لنا المحجة البيضاء حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيع عنها إلاّ هالك. وأما الهداية الخاصة فهي هداية التفضل بالتوفيق ، وخلق القدرة على الطاعة والقبول، وهذه هي المنفية عن الرسول ﷺ ، فإن أمر هذه الهداية بيد الله وحده ، فهو القادر عليها . (انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد : ٣٠٠، للشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب، و انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ١٨٣ ، للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ، أضواء البيان: ٧ / ١٢٦ .

ثم وضَّح ـ سبحانه ـ الصراط الذي يهدي إليه رسول الله ﷺ في قوله: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ والمعنى: أنك تهدي إلى صراط الله المستقيم.

فُصلت هذه الجملة عن الجملة التي قبلها؛ لأن بين الجملتين كمال الاتصال، وذلك أن الجملة الثانية بدل من الجملة الأولى، فلوجود الاتحاد التام بينهما تُرك العطف، وكذلك لاتفاق المعنى بينهما فإن الصراط الذي يهدي إليه رسول الله ﷺ هو صراط الله المستقيم، وقد «عُدل عن إضافة الصراط إلى اسم الجلالة ابتداءً؛ وذلك لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل؛ ليتمكن بهذا الأسلوب المعنى المقصود أفضل تمكن، كما أن في الاسم الموصول وصلته من الإيحاء ما ليس في غيره؛ وذلك أن الوصف باسم الموصول وصلته إيماء إلى سبب استقامة الصراط الذي يهدي النبي ﷺ إليه بأنه صراط الذي يملك ما في السموات والأرض»[(١)].

كما أن في إضافة الصراط إلى الله تشريفاً لهذا الصراط، وتعظيماً لشأنه، وتفخيماً له[(٢)]، فهو صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ملكاً، فهو ربهما ومالكهما المتصرف فيهما الحاكم الذي لا معقب لحكمه[(٣)].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ مبيناً أن أمور العباد ترجع إليه وتعود؛ ليحكم فيها، ويقضي بعدله وحكمته، كما أن هذه الجملة تتضمن «الوعيد بالجحيم، والوعد بالنعيم»[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٥٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٢٥/ ١٥٥.

(٣) انظر: جامع البيان: ٢٥/ ٤٧.

(٤) تفسير النسفي: ٤/ ١١٢، للإمام أبي البركات عبدالله بن أحمد النسفي.

بُدئتْ هذه الجملة بـ(ألا) الدالة على التنبيه والتأكيد لمضمون ما يأتي بعدها، ولأجل تنبيه المخاطبين، وجلب انتباههم .

وقد تقدم الجار والمجرور (إلى الله) على الفعل (تصير) وذلك لإفادة الحصر، أي «إن الله يتولى الأشياء دون خلقه يوم القيامة فيقضي بينهم بالعدل، وخُص ذلك بيوم القيامة لأنه ؛ لا يمكن لأحد أن يدَّعي فيه شيئاً لنفسه»[1]، وقد يقول قائل: ذُكر أن هذا التقديم أفاد الحصر وهو كذلك فالأمور كلها تعود إلى الله يوم القيامة فهو الذي يتولاها ويجازي عليها، ولكن أليست أمورهم في الدنيا ـ أيضاً ـ تعود إليه وهو الذي يتولاها؟ والجواب عن هذا التساؤل: «أن الأمور وإن كانت تعود إليه في الدنيا إلا أن للناس في الدنيا حكاماً وولاة وفقهاء ينظرون في أمورهم ويحكمون فيها، ويرجعون إليهم، وليس لهم في يوم القيامة حاكم ولا سلطان غير الله، فلذلك قيل إليه تصير الأمور هنالك، وإن كانت الأمور كلها إليه، وبيده قضاؤها وتدبيرها في كل حال»[2] .

وقد جاء الفعل (تصير) مضارعاً والمراد به الديمومة والاستمرار، وليس المراد به المستقبل فالأمور كلها صغيرها وكبيرها عظيمها وجليلها تعود إليه، كما يُلمح هذا المعنى من تعريف كلمة (الأمور) فالأمور كلها عائدة إليه وليس أمراً دون أمر .

وإن ختام السورة بهذه الآية ـ بما تضمنت من المعاني العظيمة كما دل على ذلك استفتاحها بأداة التنبيه (ألا) ـ إن ختمها بهذا فيه محسن حسن الختام، لذا

(١) البحر المحيط: ٧/ ٥٠٥ .

(٢) جامع البيان : ٢٥ / ٤٧ .

«فلأهمية هذه الآية ولأنها آخر ما يقرع الأسماع جاءت متضمنة للمعاني البديعة بهذا الأسلوب الجزل إيذاناً للسامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوف السامع إلى ما يُذكر بعده»[1]، ومن هنا جاءت غاية في الحسن ونهاية في الكمال.

(١) البرهان في علوم القرآن : ١/ ١٨٢ .

المبحث الثالث

حروف الصلة

ليس المراد بحروف الصلة أو الزيادة الحروف التي يتناولها علماء النحو والتصريف في باب (المجرد والمزيد)، والتي جُمعت حروفها في كلمة "سألتمونيها"، بل المراد بها تلك الحروف التي يسميها الكوفيون (صلة)، ويسميها البصريون (زيادة).

وقد وردتْ عدة أسماء لهذه الحروف، فالبصريون يسمونها زيادة، ولغواً، وأما الكوفيون فيسمونها : صلة وحشواً [١].

ويعلل الشيخ خالد بن عبدالله الأزهري هذه التسميات قائلاً : «أما من يسميه صلة ؛ فلكونه يتوصل به إلى نيل غرض صحيح كتحسين الكلام وتزينه، وأما من يسميه مؤكداً ؛ فلأنه يُعطي الكلام التأكيد والتقوية، وأما مَن يسميه لغواً ؛ فلعدم حصول الفائدة بها في كونهالم تُحدِث إذ جاءت شيئاً لم يكن قبل أن تجيء من العمل» [٢].

وأما معنى كونها زائدة ـ كما يذكر ابن هشام ـ «فلأنها لم يُؤتَ بها إلاَّ لمجرد التقوية والتأكيد» [٣]، فهذه كلها تسميات لهذه الحروف، ولي وقفة مع بعض هذه التسميات، سأذكرها فيما بعد.

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٧٢ .

(٢) موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب: ١٧٢ ، للشيخ خالد الأزهري.

(٣) انظر: الإعراب في قواعد الإعراب: ١٠٨ ، لابن هشام.

وقد تباينتْ آراء العلماء واختلفتْ في وجود حروف الصلة في القرآن الكريم، وبعد قراءة لتلك الآراء، وإنعام النظر فيها ألفيتُها تعود إلى ثلاثة آراء:

[١] رأيٌّ يثبتْ هذه الزوائد مطلقاً في القرآن الكريم، من غير أن ينظر لحكمة زيادتها، أو يشير إلى السرِّ الكامن فيها، فهي عند هؤلاء دخولها كخروجها، أو هي لغوٌ؛ لأنها لم تُحدث شيئاً، ومن أصحاب هذا الرأي:

أبو عبيدة[١]، والفراء[٢]، وابن قتيبة[٣]، و سيبويه[٤]، والرماني[٥]، والنحاس[٦]، والأخفش[٧]، وأبوالبقاء العكبري[٨]، و أبوحيان الأندلسي[٩]، وابن جني[١٠]، والمالقي[١١]، والمرادي[١٢]، وغيرهم كثير إذ قل أن تجد كتاباً في

(١) انظر: مجاز القرآن: ١ / ١١ لأبي عبيدة.

(٢) انظر: معاني القرآن: ١/ ٣٥٠، ١/ ٣٧٤، ٣/ ١٣٧ وغيرها، للفراء.

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن: ٢٣٢.

(٤) انظر: الكتاب: ٤/ ٢٢١، و: ٤/ ٢٢٢، وغيرها، لسيبويه.

(٥) انظر: معاني الحروف: ٣٦، ٤٨، ٦٣، ٧٣، وغيرها،.

(٦) انظر: إعراب القرآن: ١/ ٢٠٣، ١ / ٤١٥، ٢/ ٣٤٥، لأبي جعفر النحاس.

(٧) انظر: معاني القرآن: ١/ ٢١٥، ١/٤٢٧، ٢/ ٦٧٣، وغير ذلك.

(٨) انظر: إملاء ما منَّ به الرحمن في وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن: ١/ ٢١٥، ٢/ ٥٥، ٢/ ٢٨٩، وغير ذلك، لأبي البقاء العكبري.

(٩) انظر: البحر المحيط: ١/ ٣٩٨، ٥/ ١٥٠، ٥٥/٦، وغير ذلك.

(١٠) انظر: سر صناعة الإعراب: ١/ ١٣٣، ١/ ٢٩٠، ١/ ٣٢٥، وغير ذلك.

(١١) انظر: رصف المباني في شروح حروف المعاني: ١٩٧، ٢٢٠، ٢٢٨، ٢٨٩، وغير ذلك، للمالقي.

(١٢) انظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٤٧، ٨٦، ١٦٩، ٢٥٢، وغير ذلك.

التفسير أو النحو إلاَّ وفيه كثير من الحديث عن هذه الزوائد، وإثباتها في القرآن، وذلك أن «الدهماء من العلماء والمفسرين على إثبات الصلات في القرآن»[١].

[٢] وهناك رأيٌّ ثانٍ لفريق من العلماء يثبتون هذه الزيادة، ولكن بشيء من التوسط والاعتدال، فهم يذكرون هذه الزيادة مقرونةً بحكمتها، والغرضِ من مجيئها، كما أنهم لايعبرون عنها بالزيادة، ومن هؤلاء:

أبو الحسن علي بن محمد الماوردي: فهو يتحاشى لفظة الزائد، ويعبر عنها بالصلة، ويرى أن مجيئها لحكمة، وأن لها أثراً في المعنى[٢].

ومنهم ابن عطية: فهو حين يذكر هذه الحروف لا يكتفي بوصفها صلة، بل يذكر المراد من مجيئها[٣].

ومن هؤلاء البيضاوى: فهو يعبر عن هذه الحروف بالصلة، ويذكر كذلك المعاني التي تضمنتها هذه الحروف، ولكنه يردف كلامه هذا بما يبين موقفه من الزيادة يقول: «ولا نعني بالمزيد اللغو الضائع، فإن القرآن كله هدى وبيان، بل المراد بها أنها تُوضع لمعنى يُراد بها، وإنماُوضعت لأن تُذكر مع غيرها، فتفيد له وثاقة وقوة، وهي زيادة في الهدى غير قادحة فيه»[٤].

ومنهم الزمخشرى: فهو وإن كان نحوياً إلاَّ أنه لا يجاري القول بالزيادة في كل موضع، بل في مواضع يردَّها، ويرى أن القول بالزيادة فيها خطأ غير صحيح،

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/٧٢.

(٢) انظر: النكت والعيون: ١/٤٣٢، لأبي الحسن علي الماوردي.

(٣) انظر: المحررالوجيز: ١/ ١١١، ١ / ٥٣٣.

(٤) انظر: أنوار التنزيل، وأسرار التأويل: ١/ ١٢٤.

فهو وإن كان يقول بالزيادة حيناً، إلاَّ أنه يتوقف مع بعض الحروف التي قيل بزيادتها ويردُّها[١].

ومنهم: ابن هشام فهو وإن كان يرى أن بعض الحروف تقع زائدة في القرآن[٢]، إلاَّ أن له نصاً قيماً في هذه المسألة لابد أن يُذكر ويُشاد به، كما أن ذلك النص يمثل رأياً له في هذه المسألة، ولهذا السبب ذكرتُه في هذه الطائفة، يقول: «وينبغي أن يجتنب المعرب أن يقول في حرف من كتاب الله إنه زائد؛ لأنه يسبق إلى الأذهان أن الزائد هو الذي لا معنى له، وكلام الله منزَّه عن ذلك»[٣].

ومنهم: الأستاذ محمد عبد الخالق عظيمة، فهو وإن كان يرى أن هناك حروفاً زوائد في القرآن، إلاَّ أنه يعتدل في ذلك، ويذكر أن العلماء في هذه المسألة على طرفين، قسم منهم «يتحرج من إطلاق لفظ الزائد على ما في القرآن؛ لأن الزيادة لغوٌ في الكلام لا يناسب فصاحة القرآن»، ثم يذكر في المقابل «أن هناك إسرافاً من بعض العلماء في إطلاق الزائد حتى ولو كان الكلام مستقيماً من غير اعتبار الزيادة»[٤].

ومن هؤلاء ـ أخيراً ـ الشيخ عبد الرحمن تاج، فهو يرى أن من الجراءة في تفسير الكتاب العزيز إطلاق الزائد في القرآن على حروف هي في الحقيقة «أصلية

---

(١) انظر: الكشاف: ١٨٩/٤.

(٢) انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٣٣/١، ١٠٦/١، ١٧٩/١، ٢٢٢/١، وغيرها، لابن هشام.

(٣) الإعراب في قواعد الإعراب: ١٢٥.

(٤) دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٥٧٠/٢، د. عبدالخالق عظيمة.

وأصيلة في مواقعها، وأن معنى الآيات التي وردت فيها تلك الحروف مستقيمة على أصالتها كل الاستقامة»[١].

ذكر هذا في مبحث بعنوان: (لا) التي قيل إنها زائدة وليست كذلك، درء مظاهر من الجرأة في تفسير الكتاب العزيز، ثم راح يذكر شواهدها، وينفيها بقوة، فهذا موقفه الحازم والحاسم في هذه المسألة.

ومع ذلك نجده يقول في موضع آخر: «إذا كنا نمنع أن (لا) قد وقعت زائدة في تلك المواضع إلا أننا لا نمنع أن يرد في القرآن شيء مما عُهد في اللغة زيادته للتوكيد»[٢].

[٣] ورأي ثالث: يرى ألاَّ زيادة في القرآن، ويردُّ كل حرف قيل بزيادته، مبينين أثر ذلك الحرف في المعنى والسياق الذي جاء فيه.

ومن هؤلاء: المبرد وثعلب[٣]، يدل على رأي المبرد قول الشريف الرضي: «إن لأبي العباس المبرد مذهباً في جملة الحروف المزيدة في القرآن، وهو اعتقاد أنه ليس من الحروف جاء في القرآن إلاَّ لمعنى مفيد، ولا يجوز أن يكون لُقِّي مطَّرِحاً ولا خالياً من الفائدة صفراً، ثم ذكر أن هذه الزيادة نقص في الكلام يضطر إليه المتحدث وهي عيب ولغوب، ثم ذكر أن هذا الأمر متعذر ممتنع في كتاب الله»[٤].

---

(١) انظر: الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية: ٣٨، لأبي بكر عبدالرزاق.

(٢) المصدر السابق: ١٣٥.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٧٢.

(٤) حقائق التأويل في متشابه التنزيل: ١٣٥، للشريف الرضى.

وكذلك الشريف الرضي: فبعد أن ذكر رأي المبرد عقَّب عليه بقوله: «وأنا أذهب إليه، وأتبع نهجه فيه»[١].

وكذلك ابن جرير الطبري يقف في تفسيره مع كثير من الآيات التي قالوا بزيادة حروفها، رافضاً تلك الزيادة، معللاً رأيه هذا «بأنه من غير الجائز إبطال حرف كان دليلاً على معنى في الكلام»[٢]، ومن غير الجائز كذلك «أن يكون في كتاب الله شيء لا معنى له»[٣].

وكذلك الرازي يرفض القول بالزيادة، ويقف مع تلك الآيات التي قالوا بزيادة حروفها، ثم يذكر معناها، والغرضَ من مجيئها، ويذكر «أنه ليس في القرآن ما لا معنى له»[٤].

ومنهم ضياء الدين ابن الأثير: يردُّ هذه الزيادة ويرفضها، ويقف مع الحروف التي قيل بزيادتها محللاً ومبيناً أصالة ذلك الحرف في المعنى، ذاكراً أن تلك الزيادة قدح فيه[٥].

ثم ذكر أن أكثر من زعم زيادة الحروف هم النحويون، وبيَّن أن أسرار الحروف وما انطوتْ عليه من النكات البلاغية «دقائق ورموز لا تُؤخذ من النحاة؛ لأنها ليست من شأنهم، وذلك أن النحاة لا فتيا لهم في مواقع

---

(١) حقائق التأويل في متشابه التنزيل: ١٦٦.

(٢) جامع البيان: ١/ ١٩٦.

(٣) المصدر السابق ٣ / ٢٨.

(٤) التفسير الكبير: ٢/ ١٥٩.

(٥) انظر: المثل السائر: ٣/ ١٤.

الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث إنهم نحاة»[١]، ثم ينكر على أولئك المثبتين الزيادة في القرآن قائلاً: «إن الحرف لو كان زائداً لكان ذلك قدحاً في كلام الله، إذ كيف يأتي بزيادة في كلامه لا حاجة إليها، ولو كان الأمر كما ذكروا لما كان معجزاً»[٢].

وفي العصر الحديث نجد كثيراً من العلماء يرفضون الزيادة ويردونها برمتها، ومن هؤلاء:

الرافعي: فقد ذكر أن هذه الحروف قد انطوت على معانٍ وحِكَم، وجاءت بأسرار ما كانت لتكون في المعنى لولا تلك الحروف؛ وذلك «أن في هذه الزيادة لوناً من التصوير لو حُذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته»[٣].

ثم يبين أن إثبات الزيادة في القرآن ما هو إلاَّ «نقصٌ يجلُّ القرآن عنه، وليس يقول بذلك إلاَّ رجلٌ يعتسف الكلام، ويقضي فيه بغير علمه، فما في القرآن حرفٌ واحد إلاَّ ومعه رأي يسنح في البلاغة من جهة نظمه أو دلالته»[٤].

ومنهم د.محمد عبدالله دراز: فهو يرفض زيادة الحروف في القرآن، مبيناً أن لهذه الحروف معاني تتجلى لنا حين الغوص في طلب أسرارها البيانية، ثم يذكر أن إثبات الزيادة في القرآن ما هو إلاَّ جهلٌ بدقة الميزان الذي وُضع عليه أسلوب القرآن، ثم يذكر منهجاً في التعامل مع كلمات القرآن وحروفه قائلاً: «خذ

---

(١) المثل السائر: ٣/ ١٣.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ١٤.

(٣) إعجاز القرآن: ٢٣١.

(٤) المصدر السابق: ٢٣١.

نفسك بالغوص في طلب أسراره، فإن عُمِّي عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف فإيَّاك أن تعجل ولكن قل قولاً سديداً، هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف قل: الله أعلم بأسرار كلامه، ولا علم لنا إلاَّ بتعليمه»[١].

ومن هؤلاء محمد عبده، فقد وقف مع الحروف التي قيل بزيادتها وقفة متأنية، ثم بيّن أن هذا الحرف لم يكن زائداً، بل جاء لغرض بلاغي، إذ يجلُّ القرآن أن يكون فيه شيء زائد[٢].

ومن هؤلاء: أحمد بدوي فقد أفرد في كتابه (من بلاغة القرآن) باباً للزيادة، أحصى فيه كثيراً من الآيات التي قيل بزيادة الحروف فيها، ثم أخذ بتحليل تلك الآيات مبيناً أثر ذلك الحرف في المعنى، ومشيداً بمكانته، ومبطلاً القول بزيادته، وبعد عرضه للآيات كلها يصل إلى نتيجة في هذه الحروف قائلاً: «ومن كل ذلك يبدو أن ما يمكن عده زائداً، إنما هي حروف نادرة، جيء بها لأغراض بلاغية، وَفَّتْ بها هذه الحروف»[٣].

ومن هؤلاء: الدكتورة عائشة بنت الشاطىء: فقد نفت هذا الأمر ورفضته، وكان نفيها قائماً على دراسة استقرائية لمجئ (الباء) مع خبر(ما، وليس) في القرآن، وبعد هذا الاستقراء تهتدي إلى عدة نتائج وحقائق: منها اطراد مجيء (الباء) ـ التي قيل بزيادتها ـ في خبر (ما، وليس) ثم تطرح سؤالاً تَعَجُبياً إنكارياً تقول فيه: «فهل تكون الباء زائدة مع اطراد مجيئها في هذا

(١) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن: ١٣١، د. محمد عبدالله دراز.

(٢) كما ذكر ذلك عنه محمد رشيد رضا، انظر: تفسير المنار: ١/ ٣٧٩، ٣/ ٤٨.

(٣) من بلاغة القرآن: ١٠٢، أحمد بدوي.

الأسلوب لم تتخلف عنه إلاَّ في آيتين؟! ثم تذكر خلاصة استقرائها ـ عن حرف الباء بعد أن كشفت عن سره البياني ـ قائلة: «ويبدو أن القول بزيادته مما يجفوه حس العربية المرهف، ولا يُلَطِّف من هذه الجفوة أن نعلم أنهم لم يعنوا بالزيادة مجرد الحشو أو الفضول، بل أدرجوها تحت الحكم العام لمعنى التأكيد»[١].

ومنهم: د. عبد الفتاح لاشين، فهو يرد القول بالزيادة برمته، ولا يرتضيه أبداً في كتاب الله، فقد ذكر الآيات التي قيل بزيادة حروفها، فبيّن أن ذلك الحرف أصل أصيل في مكانه، لمجيئه غرض، ولوجود معنى، وذكر أن لذلك الحرف «مزايا عظمى، وأسراراً كامنة لا تُتاح لكل إنسان أن يصل إليها، بل تحتاج إلى إنسان مزود بحواس دقيقة تنفذ إلى ما في النص من أسرار»[٢]، ثم يذكر أن إطلاق الزائد على حرف في القرآن نوع من التساهل، وإغضاء الطرف عن الفوائد الجليلة، واللفتات اللطيفة التي يراها أصحاب البصائر، وصناع الكلام، ويذكر أن لأسلوب القرآن ميزاناً تُوزن به التعبيرات القرآنية، وأنها قد تخفى على بعض الناس، ولكن إن خفي علينا شيء منها فلا نتعجل بإطلاق الزيادة عليه بل نردُّ علمها إلى الله، فهو العليم بأسرار كتابه، ثم يبين أن إطلاق الزيادة نقص يجلُّ القرآن عنه، ثم يصدر حكمه الأخير مبيناً أن إطلاق الزيادة على أي حرف من حروف القرآن لا يليق بكتاب الله، وهو قول لا يثبت عند البحث[٣].

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن: ١٩٠.

(٢) من أسرار التعبير في القرآن: حروف القرآن: ١٢٤.

(٣) المصدر السابق: ١٢٠.

ومن هؤلاء ـ أخيراً ـ د. فضل حسن عباس، فقد ألفَّ كتاباً مستقلاً في هذا الموضوع ، ردَّ فيه القول بزيادة الحروف، مبيناً خطرها، وسوء أثرها في كتاب الله، ذاكراً الأسباب التي جعلت بعض العلماء يقولون بالزيادة، ثم يختم كتابه بذكر الآيات التي قيل بزيادة الحروف فيها، ثم يُحللها، ويقف مع ذلك الحرف موضحاً قيمته في المعنى، وأثره في الأسلوب، ذاكراً المعنى الذي تم للآية من أثر هذا الحرف الذي يُعد أصلاً فيها، ثم يُبين حكمه في هذا الموضوع قائلاً: «إننا عندما نُنْعم النظر فيما سموه زائداً أوصلة فإننا لا نرتاب أدنى ريب، ولا نتردد أي تردد بأن هذا الذي سموه زائداً لم يكن للتأكيد فحسب، ولم يكن ليجُمَّل به الإيقاع فقط؛ إنما هو بعد ذلك كله أمر اقتضاه المعنى، وحتمته الحكمة البيانية، فلو ذهب من الكلام لذهب جزء جوهري من المعنى، فهي بحق برهان ساطع على إعجاز هذا الكتاب، بل هي من أهم روافد إعجازه»[(١)].

وبعد عرض لتلك الآراء الثلاثة أجد أن مما ينشرح له الصدر، وتطمئن إليه النفس الرأي الثالث، وذلك لعدة أسباب :

أولاً : أن أعدل أحوال الحروف ـ كما ذكر ابن جني[(٢)] ـ أن تُستعمل غير مزيدة ولا محذوفة، فلا يليق بالحرف الزيادة ولا الحذف، فالزيادة خلاف الأصل، فكلما أمكن أن يكون الكلام مستقيماً دونه كان ذلك أولى، وهذا أصل متفق عليه[(٣)] .

---

(١) لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن: ٦٣ ، د. فضل حسن عباس .

(٢) سر صناعة الإعراب : ١/ ٢٦٩ .

(٣) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٢/ ٥٧٠ .

فإذا كان أعدل أحوال الحرف من غير زيادة ، فإن الأصل والأولى أن يكون ذلك في القرآن العظيم الذي باين كلام البشر، وفَضُل عليه .

ثانياً : كما رأينا في الرأي الثاني والثالث أنهم يذكرون معاني لهذه الحروف، ويفصحون عن الحكمة من مجيئها بما اشتملت عليه من معانٍ وحِكم، فإذا ثبت أن لهذا الحرف معنى ، ومجيئه لغرض يتطلبه المقام ويستلزمه، ولو حُذف ذلك الحرف لذهب بذهابه ذلك المعنى، إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا يُسمى ـ إذن ـ زائداً وهو أصل أصيل؟! تتضح الإجابة بجلاء حين ندرك أن العلماء حين سموه زائداً فإنهم قد نظروا إلى القاعدة النحوية، فأصّلوا ثم قاسوا ذلك على القرآن العظيم، وهذا ما لا ينبغي أبداً أن يكون وقد«كان خليقاً بهم أن يتخذوا القرآن الكريم منبعهم الذي لا يفيض، ومصدرهم الأول في كل تقعيد، وذلك أن القرآن هو الحجة البالغة، ولهذا كان لزاماً على النحويين واللغويين أن يُراجعوا مناهجهم وينسقوها مع منهج القرآن ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[(١)].

وأما أن يحكم النحويون على هذه الحروف من خلال قواعدهم التي أصلوها فهذا أمر مرفوض، لذا فمن أكبر الأسباب الداعية للقول بالزيادة ـ كما يذكر د. فضل حسن عباس ـ«هي جعل القاعدة النحوية هي الأصل، وذلك أنها تسيطر على صاحبها، فيجعلها الأصل الذي ينبغي أن يطبِّق عليه كل نص، حتى الآيات الكريمات، ومن هنا كانت نشأة الزوائد أول ما نشأت في بيئة اللغويين والنحويين» [(٢)]، فلما كان الحرف لا يُحدث شيئاً من جهة الإعراب، ولا أثراً له

(١) انظر: الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين ، د. أحمد مكي الأنصاري.

(٢) انظر: لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن: ٩٢ .

فيما بعده في العمل عدوه زائداً، فهذا هو مقياسهم، وبسبب هذا المقياس ترى بعض النحويين يطلق على تلك الحروف أسماء لا ينبغي أبداً أن تكون وصفاً لحرف في كتاب الله، فترى بعضهم يطلق عليه كلمة (الحشو)[١]، و(اللغو)[٢]، وهي أشد وأشنع.

وإن المتكلم ليتحاشى أن يصف بهذه الكلمة كلام البشر فما بالك بكلام رب العالمين، ومهما كان الغرض الذي يريده من أطلق هذا الوصف على الحرف إلاَّ أن كتاب الله يُجلُّ وينزه عن مثل تلك اللفظة، ومعاذ الله أن يكون في كتابه المجيد لغو، وذلك أن الله ـ كما يقول الرازي ـ «وصف القرآن بكونه هدى وبياناً، وكونه لغواً ينافي ذلك»[٣].

بل حتى إطلاق «الزيادة» وصفاً لحرف في كتاب الله فإن في هذا الأمر ما فيه، إذ إنها تحمل إيحاءً لا يليق بكتاب الله، وذلك أن السامع حين يسمع هذه اللفظة فسيسبق إلى ذهنه أن الزائد هو الذي لا معنى له، وكلام الله منزه عن ذلك[٤].

كما أن هذه اللفظة قد تفتح باباً من الشر والفتنة على العامي الجاهل، فقد يتبادر إلى ذهنه من معنى هذه اللفظة أنه يمكن الاستغناء عنها، فإذا ظن هذا الأمر فقد يقول: فلماذا جاء هذا الحرف إذن ؟! وماذا سيترتب على حذفه لو حذف ما داما زائداً؟ وهكذا نرى أن هذه اللفظة فتحتْ باباً على الشبهات، هذا حال العامي الجاهل في فهمه للزوائد، ناهيك عن المغرض ـ الذي يملأ

(١) ذكر الزركشي في البرهان " أن هذه اللفظة من عبارة الكوفيين " ، انظر: ٧٢/٣ .

(٢) انظر: الكتاب: ٤/ ٢٢١ ، و: حروف المعاني: ٩٠ .

(٣) التفسير الكبير: ٢/ ١٣٥ .

(٤) انظر: الإعراب في قواعد الإعراب: ١٢٥ .

الحقد قلبه على هذه الأمة وكتابها ــ فسيجد في مثل هذا الكلام مدخلاً إلى الطعن بالقرآن، ويقول : إن فيه الزائد الذي يمكن حذفه والاستغناء عنه، ثم يكون قوله فتنة على العامة حين يستشهد هذا المغرض بكلام من يثبت هذه الزيادة، ويقول بها على إطلاقها .

ولا يشفع للقول بالزيادة أن الغرض من زيادة ذلك الحرف التوكيد وتقوية المعنى كما يقول ذلك من يثبت الزيادة، ويردُّ د.محمد عبدالله دراز على هؤلاء أجمل الرد قائلاً : «دع عنك الذي يستخف كلمة (التأكيد) فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة، لا يبالي أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيده أو لا تكون، ولا يبالي أن يكون بالموضع حاجة إلى هذا التأكيد أولا حاجة له به»[1] .

وأخيراً: فهذه الأسباب تجعل الرأي الثالث الذي يرى أصحابه أن لا زيادة في القرآن ـ في نظري ـ هو القول الراجح .

وفيما يلي وقفة مع بعض الآيات فيها حروف قيل بزيادتها، لنرى مكانة ذلك الحرف فيها، وأثره في المعنى .

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ مبيناً حقيقة اليهود، وما انطوت عليه نفوسهم من الخبث والدهاء، : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٩١].

---

(١) النبأ العظيم: ١٣١ .

هذه هي حالة اليهود إذا طُلب منهم الإيمان بما أنزل الله فإنهم يرفضون ويصرون على كفرهم، ويستكبروا استكباراً .

وقد أسند الفعل (قيل) إلى ما لم يُسم فاعله ؛ إذ لا غرض يتعلق بالقائل، والظاهر أنه من جانب المؤمنين[١]، وذلك أن الشأن منصب على القول، كما أن في عدم تسمية الفاعل دلالة على أن هذا القول لم يكن يأتيهم من شخص واحد، أو من جهة واحدة، بل كان ـ والله أعلم ـ يأتيهم من كل جهة، ومن كل شخص مؤمن.

وللعلماء قولان في المراد بقوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

القول الأول: أن المراد به القرآن، ولكن الآية «سلكتْ مسلك التعميم إيذاناً بتحتم الامتثال، تنبيهاً لهم أن الإيمان بما عداه من غير إيمان به ليس بإيمان بما أنزل الله»[٢] .

القول الثاني: أن المراد بذلك كل ما أنزل الله، واحتجوا على هذا العموم بلفظة (ما) التي تفيد العموم، وقالوا: لأن الله أمرهم بأن يؤمنوا بما أنزل الله، فلما آمنوا بالبعض دون البعض ذمَّهم على ذلك، ولولا أن لفظة (ما) تفيد العموم لما حسن هذا الذم[٣].

وهذا الأمر المتضمن تلك الصلة (أنزل الله) حث لهم، وتهييج على الإيمان به، والتصديق ؛ وذلك أن الشيء إذا كان منزلاً من الله كان جديراً بالإيمان به، والانقياد له ؛ لِما يشتمل عليه من الخيرية المطلقة، والمصالح الأخروية والدنيوية .

---

(١) انظر: روح المعاني: ١/٣٢٣ .

(٢) إرشاد العقل السليم: ١/١٢٩ .

(٣) التفسير الكبير: ٣/ ١٨٥ .

ومع أن في هذا الإيمان صلاحهم وفلاحهم إلاَّ أنهم يردون بأقبح الردود وأبشعها قائلين: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي «يكفينا الإيمان بما أُنزل علينا من التوراة ولانقرُّ إلاَّ بذلك»[١].

وقد أسند الفعل (أُنزل) إلى ما لم يُسم فاعله؛ وذلك للعلم بالفاعل إذ من المعلوم أنه لا يُنزل هذه الكتب الإلهية ولا يقدر عليها إلاَّ الله، ولورود ذكر الفاعل في قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[٢].

وبهذا المقالة (نؤمن بما أُنزل علينا) أجابوا على من طلب منهم الإيمان بما أنزل الله، فقد قصروا إيمانهم على ما أُنزل إليهم، وما عدا ذلك فيكفرون به، «مع أن الواجب أن يؤمنوا بما أنزل الله مطلقاً، وهذا هو الإيمان النافع، وأما التفريق بين الرسل والكتب، وزعم الإيمان ببعضها دون بعض فهذا ليس بإيمان بل هو الكفر بعينه»[٣].

فهذا هو واقعهم يؤمنون بما أُنزل إليهم فقط، وما عدا ذلك فكما حكى الله عنهم ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

وقد جاء الفعل (يكفرون) مضارعاً، وفي هذا من الدلالة ما ليس في غيره، فمعلوم دلالة الفعل المضارع على الحدوث والتجدد، وكذلك شأن هؤلاء في كفرهم بما عدا التوراة، فالتعبير بالمضارع دلالة على أن كفرهم متجدد في كل زمن وحين[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٣٤.

(٢) انظر: البحر المحيط: ١/ ٤٧٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ١/ ٧٧.

(٤) انظر: روح المعاني: ١/ ٣٢٣.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ سوء صنيعهم مبيناً أن هذا الذي كفروا به ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ وقد وفتْ الجملة الاعتراضية بالغرض الذي جيء بها من أجلها، فقد أقامت الحجة عليهم، إذ كيف يكفرون بشيء هو عين الحق، كما أنه مصدق للكتاب الذي يدَّعون الإيمان به، كما أنها تحمل في طياتها تبكيتاً لهم وتثريباً عليهم، ورداً لمقالتهم التي زعموا فيها الإيمان بالتوراة؛ لأن من يكفر بالقرآن فإنه يكفر بما عداه من الكتب المنزلة.

وقد أفاد تعريف الجزأين الحصر المتضمن الإثبات والنفي، فقد أثبت الحق والصدق للقرآن، ولكن قد يرد على هذا الحصر إشكال وهو أن جميع الكتب المنزلة من الله حق ولا سيما التوراة؛ لأن كون القرآن مصدقاً لها دليل على صدقها وحقيقتها أيضاً، ولكن يزول هذا الإشكال بالقيد الذي ذُكر (مصدقاً لما معهم)، وذلك أن كتابهم وإن كان حقاً بلا ارتياب إلا أن الحق الذي يكون مصدقاً لما معهم هو القرآن خاصة، وبهذا يستقيم الحصر الحقيقي بهذا القيد[1].

وجملة (وهو الحق) في محل نصب على الحال، وفي مجيئها اسمية دلالة على الثبوت والدوام، وكذلك الحق؛ فإنه ثابت لا يزول ولا يتغير تبعاً لأهواء الناس وأمزجتهم، كما أن تعريف (الحق) زيادة في توبيخهم وتجهيلهم، وذلك أن المحكوم عليه مُسلَّم الاتصاف به مما يدل على أن كفرهم كان لمجرد العناد[2].

وقوله: (مصدقاً لما معهم) حال أخرى ـ أيضاً ـ والغرض من مجيئها التوكيد؛ لأن قوله: (وهو الحق) متضمن لمعناها[3].

---

(١) انظر حاشية زادة: ١/ ٣٥٢.

(٢) انظر: روح المعاني: ١/ ٣٢٤.

(٣) انظر: الدر المصون: ١/ ٣٠٣.

وقد قيل : بزيادة اللام في قوله : (لما معهم)[١]، وليس الأمر كما قيل، وما هو بزائد يدل على عدم زيادته، وأحقيته بهذا المكان سياق الآية، وخاصة الجملة المعترضة ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ ففيها إشارة إلى أن القرآن مصدق وموافق لما في أيديهم من التوراة التي أُنزلت إليهم وآمنوا بها، فجاءت اللام لتجعلهم على دراية تامة بكتابهم الذي أصبح وكأنه ملك لهم، يتضح هذا المعنى لو حُذفت منه اللام، وقيل: وهو الحق مصدقاً ما معهم، فشتان شتان بين الجملتين، كما أن فيها إقامة الحجة عليهم، وزيادة في التشنيع .

ثم أمر سبحانه رسوله محمداً ﷺ أن يقول لهم بغرض التبكيت والتشنيع على صنيعهم﴿ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أُنزل إليكم «فلِمَ قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم، وأنتم تعلمون صدقهم؟ فقتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلاَّ الآراء والتشهي»[٢].

يُلقى إليهم هذا الاستفهام المتضمن تبكيتهم وتوبيخهم، وبيان زيفهم، وبطلان دعواهم في الإيمان، والفاء في (فلم) جواب شرط مقدر، والتقدير: إن كنتم آمنتم بما أُنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله ؛ لأن الإيمان بالتوراة واستحلال قتل الأنبياء لا يجتمعان، فدعواكم الإيمان بالتوراة بهتان وكذب[٣] .

---

(١) انظر: مغني اللبيب: ١/ ٢١٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ١/ ١٣٤.

(٣) انظر: البحر المحيط: ١/ ٤٧٥ .

وقد جاء الفعل (تقتلون) مضارعاً، وفي هذا دليل على جرم فعلهم وشناعته، ففيه دليل على أن القتل مستمر فيهم[١]، ولغرض استحضار الحالة الفظيعة التي كانوا عليها ، ولتصويرها وعرضها وجعلها مشاهدة للعيان وكأن القتل يحدث الآن زمن الخطاب [٢]، لهذه الأسباب جاء الفعل مضارعاً وإن كان المراد بالقتل زمن المضي، يدل عليه قوله: (من قبل) .

فإن قيل: فلم قيل لهم: (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل) وهؤلاء لم يقتلوا نبياً قط ؟ قيل: إن ذلك جائز إذا أردتَ بـ(تفعلون) المضي، ألا ترى أنك تعنِّف الرجل بما سلف من فعله ، قائلاً : ويحك لِمَ تكذب؟ وذلك عربي كثير في الكلام، فقد نُسب القتل إليهم مع أن الذي قتل الأنبياء أسلافهم، ولكن لما تولَّوهم على ذلك، ورضوا به نُسب إليهم [٣]، فهم لما رضوا فعل أسلافهم صاروا كأنهم هم الذين قاموا بذلك العمل، لذا «فإن لفظة (القتل) جيء بها للتعظيم، ولم تأتِ على حقيقتها ، وإنما هي مجاز عن الرضا والعزم عليه»[٤] .

وفي إضافة الأنبياء إلى لفظ الجلالة (أنبياء الله) تشريف وتعظيم لأولئك الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كما أن فيها تشنيعاً على أولئك الأقوام الذين قتلوهم، وكان الأولى بهم أن يتبعوهم وينصرونهم .

وفي قوله: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قولان:

---

(١) انظر: البحر المحيط: ١/٤٧٥ .

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ١/ ٦٠٨ .

(٣) انظر: معاني القرآن : ١/ ٦٠ ، للفراء .

(٤) حاشية زادة : ١/٣٥٣ .

الأول : أن (إن) نافية، أي ما كنتم مؤمنين ؛ لأن من قتل الأنبياء لا يكون مؤمناً .

والثاني : أن (إن) شرطية، والجواب محذوف، والتقدير: فلِمَ فعلتم ذلك، ويكون الشرط والجواب قد كرر مرتين على سبيل التوكيد[١] ؛ وذلك لتوكيد الإلزام، وتشديد التهديد، أي إن كنتم مؤمنين فلِمَ تقتلون الأنبياء [٢]، وهذا المعنى هو الأولى، والأدل على معنى الآية، المحقق لغرضها، المظهر له .

وفي موضع آخر يذكر ـ سبحانه ـ الحكمة من إنزال القرآن، الحالة التي يجب أن يكون عليها رسول الله ﷺ يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١ـ ٣].

كتابٌ: خبر لمبتدأ محذوف أي هذا كتاب، وأصل الكلام (أُنزل إليك كتاب)[٣]، والأول أولى ؛ لكثرة شواهده في اللغة شعراً ونثراً .

وفي تنكير لفظة (كتاب) تعظيم له، فهو كامل العظمة، رفيع القدر، حسبه أنه مُنَزَّل من عند الله، وقد يكون غرض التنكير: «التعجيب من شأن هذا الكتاب في جميع ما حفَّ به من البلاغة والفصاحة والإعجاز والإرشاد، وكونه نازلاً على رجل أمي»[٤].

---

(١) انظر: البحر المحيط: ١/ ٤٧٥ .

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم: ١/ ١٣٠ .

(٣) انظر: مجاز القرآن: ١/ ٢١٠ .

(٤) التحرير والتنوير: ٨/ ١١ .

وإن قيل : كيف ساغ الابتداء بلفظة (كتاب) وهي نكرة؟ فيقال : «لأن هذه النكرة أُريد بها النوع لا الفرد، فلم يكن في الحكم عليها إبهام ، وفي هذه النوعية ردٌّ على المشركين الذين أنكروا أن يكون القرآن منزلاً من عند الله ، فجاءت هذه النوعية لتدل على أنه كتاب من نوع الكتب المنزلة على الأنبياء»[١] .

وقد أسند الفعل (أُنزل) إلى ما لم يُسم فاعله ؛ وذلك «جرياً على سنن الكبراء، وإيذاناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل ؛ لغاية ظهوره»[٢]، وذلك أن هذا الكتاب المعجز، البليغ في لفظه ومعناه، المشتمل على خيري الدنيا والآخرة، لا يكون إلاَّ من عند الله [٣].

وقوله : (أنزل إليك) صفة للكتاب دالة على عظيم قدره، وقدر مَن أنزل إليه .

ثم قال ـ سبحانه وتعالى ـ بعد هذا : ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يأمر ـ سبحانه ـ نبيه محمداً ﷺ ألا يضيق صدره من هذا الإنذار والإبلاغ، وألاَّ يُذهب نفسه حسرات عليهم، بل يمضى لأمر الله، وحمل أعباء الدعوة، فإن له في الرسل قبله أسوة وعزاء[٤] .

قال الفراء : «في الكلام تقديم وتأخير، وأصله : «كتاب أُنزل إليك لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج» [٥]، وعلى هذا تكون الفاء للجواب، وعلى هذا

---

(١) المصدر السابق : ٨/ ١١ .

(٢) إرشاد العقل السليم : ٣/٢٠٩ .

(٣) انظر : تفسير المنار : ١١/ ٨٢ .

(٤) انظر : جامع البيان : ٨/١١٦ .

(٥) معاني القرآن : ١/٣٧٠ ، للفراء .

التقدير فقد تقدمت جملة النهي (فلا يكن في صدرك حرج) ، وسبب هذا التقديم أن فيها «تنبيهاً على أنه ينبغي أن يُزيل الحرج أولاً عن صدره، ثم يشتغل بالإنذار فتكون الفاء لترتيب النهي على قوله ـ تعالى ـ (أنزل إليك) »[١]، فلما كان هذا الإنذار لايكمل ولا يُعطي ثمرته المرجوة منه إلاَّ بعد طرح الحرج قدَّمَ ـ سبحانه ـ هذا الأمر.

ونلحظ في هذا الأسلوب أن خبر يكن (في صدرك) قُدم ـ أيضاً ـ على اسمها (حرج) ولعل السَّر في هذا ـ والله أعلم ـ أن الله أراد من رسوله ﷺ طرح الحرج ونبذه ، وكان الأمر منصباً على الصدر أن يكون سليماً خالياً منه، لذا قدَّمه وبدأ به ؛ لأنه مَحَلُّ الحرج ، فالحرج وإن كان موجوداً ولا بد فلزاماً أن يخلو الصدر منه، لذا قُدم على اسمه ؛ لأنه المراد من هذا النهي.

وقد ورد عن العلماء تفسيران للحرج :

الأول: «الضيق، أي لا يضق صدرك بالإبلاغ، ولا تخافنَّ في تأدية ما أُرسلت به»[٢] .

الثاني: الشك «وسُمي الشك حرجاً ؛ لأن الشاك ضيق الصدر، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه»[٣] .

وأصل الحرج: المكان الضيق من الغابات الكثيرة الأشجار الملتفة حول بعضها، فلا يجد السالك فيها سبيلاً واضحاً ينفذ منه[٤] .

---

(١) حاشية زادة: ٢/ ٢٢٧ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ٣١٥ .

(٣) الكشاف: ٢/ ٦٥ .

(٤) انظر: تفسير المنار: ٨/ ٣٠٤ .

وفي هذه اللفظة استعارة تصريحية أصلية حيث شُبهت النفس ـ عند الحزن والغضب والأسف ـ بمن يسير في طريق أشجاره مجتمعة، وملتف بعضها حول بعض، بجامع الصعوبة في السير والانقباض[١]، وقيل: إن هذا الاستعمال مجاز علاقته اللزوم، فالشاك يعتريه ضيق الصدر، والقرينة المانعة هي امتناع حقيقة الحرج والضيق من الكتاب وإنزاله[٢]، وقيل: إن اللفظة على حقيقتها، ولكن بتقدير مضاف أي لا يكن في صدرك حرج من تبليغه، بسبب تكذيبهم والإعراض عنه[٣]، وهو أرجح هذه الأقوال الثلاثة ـ والله أعلم ـ إذ هو المراد من هذا النهي، وهو ـ أيضاً ـ سبب هذا الحرج، وهو خوفه ﷺ وتحرجه من تكذيبهم للقرآن وإعراضهم عنه.

ومع أن الحرج ليس مما يُؤمر ويُنهى إلاَّ أن هذا النهي جاء على هذه الصورة؛ «بغية التهييج ليداوم على اليقين ويزيد فيه»[٤].

وقد جاءت كلمة (حرج) نكرة لغرض التحقير أي يصغر أي حرج ويُحتقر أن يكون في صدر الرسول العظيم ﷺ الذي ضرب أروع الأمثلة في يقينه بربه، واعتماده عليه.

وقد يُراد من التنكير التقليل، فهو نهي له أن يكون في صدره حرج ولو نزر قليل منه.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٨/ ١٤.

(٢) انظر: حاشية زادة: ٢/ ٢٢٦.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٢/ ٢٢٦.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٢٢٦.

ولما ذكر ـ سبحانه ـ إنزال الكتاب بيّن الحكمة منه في قوله: ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فاللام للتعليل، فما أنزل الله هذا الكتاب إلاَّ لِيُنذر به الكافرون، ويتذكر به المؤمنون، ومتعلق اللام بـ(أُنزل) «أي أنزل إليك لإنذارك به، أو بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، ولأنه إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار» [(١)]، والأول أولى؛ إذ إن فيه بياناً لإنزال الكتاب وهو الإنذار، والضمير (به) يعود على القرآن.

والحكمة الأخرى من إنزاله (ذكرى للمؤمنين) أصحاب القلوب المتعظة الوجلة من كلام الله، المطمئنة قلوبهم بذكر الله، فهؤلاء وحدهم الذين يتذكرون بالقرآن، وينتفعون به[(٢)].

وبهذه الحِكَم فقد شمل إنزال الكتاب الفريقين: المؤمنين والكافرين، فلكل من الفريقين حظ منه ونصيب، كلٌّ بما يناسب حاله، فعاد النفع على الفريقين، فانتفع مَن انتفع، وقامتْ الحجة على مَن تولى وكفر.

وقد قُدم إنذار الكافرين على ذكرى المؤمنين؛ وذلك أنسب للمقام ومراعاة له، وذلك أن السورة مكية، وأكثر ما يدور حوله جدالهم ونقاشهم عن القرآن، والحكمة من إنزاله فجاءت السورة بهذا الترتيب رداً عليهم، وإبطالاً لمزاعمهم، وحجة عليهم، «ولا ينافي كون الإنذار للكافرين ما ذكره الله في مواضع أخرى من كتابه من قصر الإنذار على المؤمنين دون غيرهم في قوله: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١]؛ لأنه لما كان الانتفاع بالإنذار مقصوراً عليهم، صار الإنذار كأنه مقصور عليهم؛ لأن ما

(١) الكشاف: / ٦٦.

(٢) ذكر ابن القيم قاعدة جليلة في شروط الانتفاع من القرآن، انظر: الفوائد: ٩.

لا نفع فيه كالعدم، ومن أساليب اللغة العربية التعبير عن قليل النفع بأنه لاشيء»[١]، ومن هنا جاءت الآية مقيدة الذكرى بالمؤمنين؛ لأنهم أصحاب القلوب المنتفعة بكتاب الله .

حُذف متعلق (لتنذر) وفيه من الإيجاز والإيحاء ما فيه مما لا يقدر قدره؛ ففي الحذف دلالة على عموم الرسالة لكلٍّ من أمكن إنذاره، وفيها من الدلالة أن هذا الكتاب مُنْذَر به كافة الخلق أجمعين على اختلاف أجناسهم ومللهم، فقد أفاد الحذف العموم، ومن بلاغة القرآن وعلو شأنه أنه حذف متعلق الإنذار وهم الكافرون، وصرح بمتعلق الذكرى وهم المؤمنون، وذلك اهتمام بالمؤمنين، وتنويه بشأنهم، وكذلك احتقارٌ للكافرين وازدراءٌ بهم[٢] .

وفي هذه الآية احتباك[٣] ؛ وذلك «أن القرآن منذر للكافرين، ومذكر للمؤمنين، فإثباته (لتنذر) أولاً دلَّ على حذف (لتذكر) ثانياً، وإثبات (المؤمنين) ثانياً دلَّ على حذف المخالفين أولاً، وذلك أن النفوس قسمان : نفوس غافلة معرضة، غارقة في طلب اللذات والشهوات، فمبعث الرسل في حقهم إنذار وتخويف، ونفوس شريفة مشرقة، فمبعث الرسل في حقهم تذكير»[٤].

---

(١) أضواء البيان: ٢/٢٥٧ .

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٨/١٤ .

(٣) الاحتباك لغة: بمعنى الشد والتوثيق والإحكام ، ومنه قولهم: حبكتُ الحبل: أي شددته، وحبكتُ العقدة أي وثقتها، وبناء محبك أي موثوق، والمحبوك ما أُجيد عمله (انظر: أساس البلاغة، لسان العرب، مادة: حبك، وهو في الاصطلاح: أن يُجمع في الكلام متقابلان فيُحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه، وهو من ألطف أنواع الحذف وأبدعها . (انظر: الإتقان: ٣/ ١٢٩) .

(٤) نظم الدرر: ٧/٣٤٩ .

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ شأن الكتاب، والحكمة من إنزاله أمر باتباع ما جاء فيه من البينات والهدى، وعدم اتباع ما يأمر به عبدة الأوثان والأصنام، وذلك أنهما طريقان لا ثالث لهما : إما اتباع ما أنزل الله، أو اتباع ما عداه من السبل المنحرفة والمضللة .

فيأمر ـ سبحانه ـ باتباع ما جاء في الكتاب والانقياد له، كيف لا ومنزل الكتاب هو (ربكم)، وفي اختيار لفظة (الرب) دون ما عداه إيحاء بما تلقيه هذه اللفظة من ظلال ، وذلك أن من معاني الرب : المالك والسيد، فوصفه بالربوبية حث لهم على الاستجابة والقبول .

كما في مجيء لفظة (ربكم) مضافة إلى ضمير المخاطبين «مزيد لطف بهم، وترغيب لهم في الامتثال بما أُمروا، وتأكيد لوجوبه»[1] ؛ وذلك أن صاحب الأمر هو ربكم الذي خلقكم ورزقكم، وبيده أمركم فحريٌّ بكم السمع والطاعة، والامتثال لهذا الأمر .

ثم أكَّد ـ سبحانه ـ المعنى المتقدم بقوله :﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾«فهذه الجملة تصريح بما تضمنته الجملة الأولى؛ لأن فيما أُنزل إليهم من ربهم أن الله إله واحد لا شريك له ، ومن هنا يكون هذا النهي تأكيداً لمقتضى الأمر باتباع ما أنزل إليهم اهتماماً بهذا الجانب، كما أنها تسجيل على المشركين، وقطع لمعاذيرهم أن يقولوا : إننا اتبعنا ما أُنزل إلينا »[2].

---

(١) إرشاد العقل السليم : ٣ / ٢١١ .

(٢) التحرير والتنوير: ١٥/٨ .

ثم ذُيِّل ما تقدم بقوله: ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ وذلك بياناً لحال أولئك المشركين مع ما أُنزل إليهم من ربهم .

وقد قيل: بزيادة (ما) في قوله: (ما تذكرون)[١]، وما هي بزائدة، فقد ذكر العلماء المعنى الذي جاءت من أجله، وبينوا ما انطوى تحتها، فذكروا أنها نافية، ويكون المعنى: أنهم ما يذكرون قليلاً ولا كثيراً[٢]، كما أشادوا بهذا الوجه من حيث المعنى[٣] .

وإنما ردَّه بعضهم من حيث الصنعة الإعرابية، فالبصريون يمنعونه بحجة أن (ما) لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، ولكن الكوفيين يجيزون ذلك، والمعنى: «ما تذكرون قليلاً فكيف تذكرون كثيراً»[٤]، إذن فليست بزائدة بل جاءت بمعنى مفيد، فقد أوضحت أن هؤلاء الأقوام لا يتعظون ولا يتأثرون بذلك الكتاب، ولا يعملون بموجبه، ويتركون دين الله، ويتبعون غيره، بل قد يراد بها عدم الفعل أصلاً[٥] .

وقد قرأ ابن عاصم (يتذكرون) بالياء على صيغة الغيبة[٦]، وتكمن بلاغة هذا القراءة أن فيها التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة، وفي الالتفات بهذا الطريق تحقير لشأنهم، فقد صُرف الخطاب عنهم، فكان الكلام موجهاً إلى غيرهم إلى

---

(١) انظر: مغني اللبيب: ١ / ٣١٦ .

(٢) انظر: إملاء ما منَّ به الرحمن: ١/ ٥٠ .

(٣) انظر: المصدر السابق: ١/ ٥٠ .

(٤) روح المعاني: ٨/ ٧٨ .

(٥) انظر: إرشاد العقل السليم: ٣/ ٢١١ .

(٦) انظر: المحرر الوجيز: ٣ /٢١١.

النبي ﷺ والمسلمين ؛ وذلك لعدم امتثالهم للأوامر، وانزجارهم عن النواهي فقد صُرف الخطاب عنهم، وحُكيت جنايتهم لغيرهم لعدم المبالاة بهم، وكأنهم ليسوا أهلاً للخطاب[١] .

وفي موضع آخر يُبين ـ سبحانه ـ حال المنافقين وقت تنزل القرآن، وموقفهم منه، ذاكراً أثره في نفوسهم، ومن هذا الموقف يتبين الفرق بينهم وبين المؤمنين حين ينزل عليهم القرآن، يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤ـ١٢٥] .

يذكر ـ سبحانه ـ شيئاً من قبائح المنافقين ـ وما أكثرها ـ مبيناً أنه ما ينزل شيء من القرآن إلاَّ ويتبادر المنافقون لطرح هذا السؤال : ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ﴾.

وسُوْر المدينة : حائطها المشتمل عليها ؛ وذلك لرفعته وإحاطته بالمدينة، وكذلك سور القرآن سُميت بهذا الاسم ؛ لرفعتها، وعظيم مكانتها[٢].

جاءت لفظة (سورة) نكرة غير مقيدة بشيء من حيث ما نزل فيها من الأوامر والنواهي، بخلاف الآية التي قبلها، وهي قوله : ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ... ﴾ [التوبة : ٨٦] والسُّر في هذا التنكير وذلك الإطلاق : أن سور القرآن كلها لا تخلو من دعاء إلى الإيمان والأعمال الصالحات من الجهاد والإنفاق، فيكون المراد : إذا أُنزلت سورة ما من القرآن من غير تحديد لطبيعتها، وبغض النظر عما جاءت به[٣] .

---

(١) المحرر الوجيز : ٢١١/٣ .

(٢) انظر : مفردات ألفاظ القرآن : مادة : ، للعلامة الراغب الأصفهاني .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : ١١/ ٦٤ .

كما في الإطلاق ملمح لواقع المنافقين بسبب ما فيهم من الأمراض والانحرافات فهم بنزول أي آية يظنون أن فيها حديثاً معيناً عن مرض من أمراضهم، فجاءت مطلقة، فكأنها تشير إلى أمراضهم كلها من غير تخصيص؛ لذا فهم يخافون من نزول كل سورة بلْه آية تفضحهم، وتبين حقيقتهم، ومن هنا جاءت اللفظة نكرة؛ لإفادة العموم والنوعية.

قيل: إن (ما) في قوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ﴾ زائدة[1]، وأصل الكلام: (وإذا أُنزلت سورة)، وعند النظر يتبين أن هذا الحرف ليس بزائد، بل هو أصل في مكانه، ولمجيئه غرض، وذلك «أن هذا الخبر كان غريباً، فكان خليقاً بأن يُؤتي معه هذا الحرف، ليبين هذا الأمر ويُجليه»[2]، كما أن فيه توكيداً لمعنى الشرط.

والسبب الذي جعلهم يقولون بزيادته: هو قياس آية من القرآن على آية أخرى، فقد يكون في القرآن آيتان ذُكر في إحداهما مالم يُذكر في الأخرى، فيحُكم على ذلك الحرف بالزيادة [3]، فقد يكون سبب هذا الحكم ـ والله أعلم ـ أنهم قاسوا هذه الآية على آية أخرى وهي قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ...﴾ [التوبة: ٨٦]، فلما لم يكن في هذه الآية ذلك الحرف حكموا عليه بالزيادة، مع أن لكل آية سياقاً خاصاً بها.

يذكر ـ سبحانه ـ فضائح هؤلاء المنافقين من غير أن يذكر أسماءهم في قوله: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾ والمراد بذلك المنافقون، وذلك أن كثيراً من آيات سورة

---

(١) انظر: الجنى الداني: ٣٣٣.

(٢) التحرير والتنوير: ١١/٦٤.

(٣) انظر: مبحث: أسباب القول بالزيادة في القرآن: ٩٣، من كتاب: لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن.

(التوبة) فضحت المنافقين؛ لذا فإن مِن أسماء هذه السورة: الفاضحة، والبحوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين، والمبعثرة، والمقشقشة؛ لكونها تقشقش من النفاق (أي تبرىء منه) والمخزية؛ لكونها أخزت المنافقين، والمنكِّلة؛ لِمَا فيها من التنكيل بهم، وغير ذلك[١].

ولم يكن غرض المنافقين من هذا السؤال طلب العلم والمعرفة كلا، بل الغرض من ذلك التهكم بالمؤمنين وبالقرآن، والإنكار والاستهزاء[٢]، يدل على الاحتقار اسم الإشارة (هذا) فهم يشيرون إلى ما نزل باحتقار وازدراء.

وقد أضيف الإيمان إلي السورة؛ لأنه يزيد بسببها، وذلك أن العبد إذا تفهم مراد الله وعمل به، وقام به على خير وجه يكون قد اقترب من الله زلفى، وزاد في الأعمال الصالحة التي تكون سبباً لزيادة الإيمان.

فهذا هو سؤال المنافقين الذي قصدوا به السخرية والاستهزاء بالمؤمنين ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو الذي يدافع عن المؤمنين يتولى الرد على هؤلاء المنافقين مرضى القلوب في قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ فقد زاد إيمانهم بتدبر هذه الآيات، والعمل بما فيها«كيف لا يزيد إيمانهم وقد أُضيف إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة أخرى، كيف وقد خفقت قلوبهم بذكر ربهم فزادتهم إيماناً، وقد استشعروا عناية ربهم بهم في إنزاله آياته عليهم فزادتهم إيماناً»[٣].

---

(١) فتح القدير: ٢/٣٣١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ١١/ ٦٥.

(٣) في ظلال القرآن: ٣/ ١٧٤٢، وهذه الآية ـ كما يذكر ابن كثير في تفسيره ـ من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب السلف والخلف من أئمة العلم. (انظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٤٢٢).

ولا يقف الأمر بالنسبة للمؤمنين عند زيادة الإيمان، بل يحصل لهم مع ذلك الفرح والاستبشار بما نزل إليهم من ربهم كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

وفي مجيء ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ جملة فعلية دلالة على تجدد استبشارهم، وتكرر حدوثه مرة بعد أخرى، وذلك أن كل آية تنزل عليهم تحدث لهم تدبراً وعملاً فيزيد إيمانهم، فيتبع ذلك الفرح والاستبشار، هذه هي حال المؤمنين، أما المنافقون ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فكانت هذه السورة فتنة لهم، فقد زاد شكهم، وتفاقم كفرهم بآيات الله، فنتج عن ذلك زيادة الرجس، علاوة على ما كان في قلوبهم من قبل .

والرجس هو: «الشيء القذر، يُقال: رجل رِجْس، ورجال أرجاس، وقيل: هو النتن»[(١)] والرجس هنا على ثلاثة أقوال : الشك، والإثم، والكفر؛ لأنهم كلما كفروا بسورة زاد كفرهم[(٢)]، ولا تعارض بين هذه الأقوال الثلاثة؛ وذلك أن تلك المعاني تجتمع في قلوب المنافقين إذا ما سمعوا ما أنزل على الرسول ﷺ .

وقد جاء الرجس مُعدَّى بـ(إلى) دون (على)؛ لكونه قد ضُمن معنى (انضم) فصار المعنى: زادتهم السورة كفراً مضموماً إلى كفر، وشكاً مضموماً إلى شك[(٣)]، وفي هذا التضمين إشارة إلى مافي قلوبهم قبل نزول السورة من الرجس والشك والنفاق، فالرجس فيهم من قبل ومن بعد .

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: مادة: رجس

(٢) انظر: زاد المسير : ٣/ ٥١٩ .

(٣) انظر: الكشاف: ٢/٢٢٢ .

وكان عاقبة هذا الرجس الذي في قلوبهم أن كان سبباً في موتهم على الكفر، كما حكم الله عليهم وقضى ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ كما نلمح هذا من عطف جملة ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ على ﴿ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾ وذلك أن الجملتين متفقتان في الخبرية، متغايرتان في المضمون إلاَّ أن بينهما اتصالاً وثيقاً في المعنى؛ إذ موتهم على الكفر بسبب الرجس الذي يملأ قلوبهم، وهذا من إعجاز القرآن في إخباره بالمغيبات، فقد ذكر أن المنافقين سيتمادون في النفاق إلى أن يقبض الله أرواحهم وهم على الكفر، وصدق الله ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فنزول القرآن سبب لزيادة الإيمان والاستبشار، بيد أن هذا خاص بالمؤمنين، كما أنه زيادة في الكفر والرجس، وهذا للكافرين والمنافقين، وهذا الحكم باقٍ إلى يوم القيامة.

وفي موضع آخر بيان لحال المشركين مع ما يأتيهم من الذكر والمواعظ التي تزلزل الجبال؛ ولكنهم يستمعون إليها وهم عنها غافلون، يقول ـ سبحانه ـ: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ [الأنبياء: ١-٢].

تبدأ السورة بهذا الأسلوب القوي الجزل الذي يقرع الأسماع، ويأخذ بمجامع القلوب بما يلقيه من روعة، وبما اشتمل عليه من الجزالة مع حسن النظم والسبك[1].

---

(١) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/ ٥٨ ، .

وقد أشارت صيغة الافتعال (اقترب) «إلى مزيد القرب ؛ لأنه لا أمة بعد هذه الأمة»[١] ومعنى (اقترب) : قرُب ، إلاّ أن الأول أبلغ ؛ وذلك للزيادة التي في مبناها ، وذلك أن صيغة الافتعال مستعملة في تحقق الفعل ، أي اشتد وقرب وقوعه[٢] ، فحساب الناس قد أصبح قريباً وشيكاً ؛ ولكن الناس عن ذلك غافلون .

والمراد بالناس المشركون ، فيكون في هذا الأسلوب مجاز مرسل ، وعلاقته الكلية ، فقد أطلق الكل وأراد البعض[٣] .

وقيل : عام في جميع الناس ، وإن كان المعني به في ذلك الوقت كفار قريش ، فهذه الآية تنال العصاة من المؤمنين المفرطين الغافلين للأخذ بأسباب النجاة[٤] ؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذه الآية وإن كانت في كفار قريش إلاّ أن العبرة فيها بعمومها[٥] .

كما أن في لفظة (الناس) ـ بما فيها من عموم ـ ترهيباً بليغاً للخلق كلهم ، وما كان هذا المعنى ليكون لو كان مخصصاً بفئة دون أخرى[٦] .

ومعنى اللام في قوله : (للناس) إما أن تكون متعلقة بـ(اقترب) ، وقيل : إنها بمعنى (مِن) أي اقترب من الناس حسابهم ، و(حسابهم) فاعل الاقتراب ، وقد

---

(١) نظم الدرر : ١٢/ ٣٧٩ .

(٢) انظر : البحر المحيط ٦/ ٢٧٤ .

(٣) انظر : الكشاف : ٢/ ٥٦١ .

(٤) انظر : المحرر الوجيز : ٤/ ٧٣ .

(٥) انظر : حاشية الصاوي : ٣/ ٧١ .

(٦) انظر : محاسن التأويل : ١١/ ٤٢٤٤ ، لجمال الدين القاسمي .

تقدم الجار والمجرور عليه، وفي تقدمه «مسارعة إلى إدخال الروعة فيهم؛ وذلك أن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم، ويورثهم رهبة وانزعاجاً من المقترب»[١].

فإن قيل: كيف وُصف بالاقتراب وقد مضى على هذا القول مئات السنين؟ قيل: «هو قريب عند الله، وإن كان بعيداً عند الناس، وذلك أن اليوم الواحد عنده كألف سنة مما نَعدُّ، وقيل: لأن كل آت ــ وإن طالت أوقات ترقبه واستقباله ـ قريب، إنما البعيد الذي وُجد وانقرض، ولأن ما بقي من الدنيا أقصر وأقل مما سلف»[٢].

ولقائل أن يقول: ما الحكمة من هذه الخبر؟ وما الغرض من إعلام الناس بهذا الاقتراب؟ فيُقال: «لِمَا فيه من المصلحة للمكلفين، فيكون ذلك أقرب إلى تلافي الذنوب، والتحرز عنها خوفاً من الله»[٣]، كما أن من عَلِمَ اقتراب الساعة فسيقصر أمله، ويسارع بالتوبة، ولا يركن إلى الدنيا، وكل ما هو آتٍ قريب، والموت لا محالة آتٍ، وبموت كل إنسان تقوم ساعته[٤].

وجملة ﴿ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ في محل نصب على الحال[٥]، فقد بينتْ حال هؤلاء الناس، فمع علمهم باقتراب حسابهم إلاّ أنهم في غيهم سادرون غافلون.

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٥/٥٣.

(٢) الكشاف: ٢/٥٦١.

(٣) التفسير الكبير: ٢٢ / ١٤٠.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢٣٦.

(٥) انظر: الدر المصون: ٥/ ٧٠.

وقد تقدم الجار والمجرور على الخبر، وذلك أن المراد من هذه الجملة بيان الحالة التي عليها القوم، وهي الغفلة، ومن هنا قُدمتْ على الخبر.

وفي مجيء هذه الجملة اسمية دلالة على ثبات القوم واستمرارهم على ما هم عليه من الغفلة مع تكرار ما ينزل عليهم من القرآن، كما أكدَّ هذا المعنى وقرره حرف الجر (في) ـ بدلالته على الظرفية ـ ففيه دلالة على شدة تمكن الغفلة من نفوسهم، فهم غافلون أشد الغفلة حتى كأنهم منغمسون فيها، فقد تحكمتْ فيهم الغفلة، وأحاطت بهم إحاطة الظرف بمظروفه، وذلك أن غفلتهم متأصلة فيهم؛ وذلك بسبب كفرهم وعنادهم[1].

ثم يبين ـ سبحانه ـ غفلتهم وإعراضهم حين تنزل آيات ربهم الزاجرة عليهم بما فيها من عِبَر وعظات وضرب الأمثال مما يستوجب منهم خشوعاً وتدبراً، وإقبالاً عليها، وعملاً بما فيها؛ ولكن حالهم غير هذا تماماً فهم يسمعونها وهم يلعبون سخرية بها واستهزاء ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ وهذا هو العجب العجاب أن تلهو قلوبهم وتغفل عن ذكر صادر (من ربهم) رب العالمين، وهذا هو السرُّ ـ والله أعلم ـ في اختيار لفظة (الرب) دون سواها ، إذ فيها تعريض ببشاعة صنيعهم، وتقبيح لإعراضهم[2]، ولهوهم عن كتاب ربهم وخالقهم ومدبر أمرهم.

جاءت هذه الإضافة (ربهم) تسجيلاً عليهم بمزيد التشنيع والتقبيح، فكأنها قائلة لهم: يا مَن تعرضون عن هذه الآيات وتسخرون أما علمتم أنها نازلة من

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ١٧/ ١١.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم: ٥/ ٥٤.

ربكم، وخالقكم، وما هذه شأن العبيد مع خالقهم ومالك أمرهم، فكيف يكون هذا منكم؟!

وقد قيل : بزيادة (من) في قوله: (من ذكر)[١]، وما هي بزائدة، فقد قام بها غرض بلاغي، فقد استغرقت نفي أجناس الأذكار التي تأتي هؤلاء القوم، بحيث لم تكن صفتهم معها إلاَّ كذلك، وحتى يتبين هذا المعنى الذي جاء به هذا الحرف فلننظر في الآية لو خلت من هذا الحرف وقيل: (ما يأتيهم ذكر) فسيكون معني الآية : أنها أوضحت حالة أولئك القوم مع هذا الذكر الذي جاءهم فقط، وليس هذا هو المراد من الآية، بل المراد أن هذه حالتهم دائماً مع كل ذكر يأتيهم من ربهم محدث النزول.

وكيف تكون زائدة مع اطراد مجيء (من) الاستغراقية بعد النفي في القرآن، كما أنها تدل على التنصيص على العموم، وحسبنا ما يعطيه هذا الحرف من دقة في المعنى، وحسن في البيان بما يلقيه من ظلال وإيحاء وهذه أمور من الأهمية بمكان، كلها تنفي أن يكون هذا الحرف زائداً [٢].

ثم ينعت ـ سبحانه ـ هذا الذكر المنزل عليهم بأنه (محدث) من حيث تنزل القرآن شيئاً فشيئاً عليهم، بغية الذكرى والاتعاظ[٣]، فهو محدث في نزوله ؛ فإنه كان ينزل سورة بعد سورة، وآية بعد آية[٤]، وفي نعته بأنه محدث«زيادة تشنيع

(١) انظر: أوضح المسالك إلى ألفية أبن مالك: ٣/ ٢٧ ، لابن هشام ، تأليف: محمد محي الدين عبدالحميد .

(٢) انظر: لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن : ١٥٨ .

(٣) انظر: جامع البيان : ٢/١٧ .

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢٣٧ .

عليهم ؛ وذلك أنه لو لم تُذكر هذه الصفة لجاز أن يُتوهم أن ذكراً واحداً تكرر بيانه ، بأن يذكره النبي ﷺ مرة بعد أخرى ، فإذا قيل محدث عُلم أنه لم يكن فكان بعد مالم يكن»[١] .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ حالهم عند مجيء هذا الذكر المحدث إليهم في قوله : ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ فهذه حالتهم مع ما ينزل عليهم من الآيات يصغون إليها ويستمعون ولكن من أجل اللعب والسخرية بها والاستهزاء ، فإنهم يلهون عند سماعها بلذاتهم ، وينشغلون عنها بالقدح فيها ، والاعتراض عليها[٢] .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ حالة أخرى من أحوالهم مع هذا الذكر المحدث في قوله : ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ وفي مجيء هذه الجملة ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ فعلية دلالة على تجدد هذا الفعل منهم ، وتكرر حدوثه منهم مرة بعد أخرى ، وذلك أن كل آية تنزل عليهم يقابلونها باللعب واللهو ، فهذه حالتهم ، وذلك ديدنهم مع كل آية تنزل عليهم .

وأخيراً : لهذه الآيةِ آية أخرى شبيهة بها وهي قوله ـ سبحانه ـ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ [الشعراء : ٥] ، فما الحكمة من تخصيص ذكر "ربهم" في سورة (الأنبياء)؟ وذكر "الرحمن" في سورة (الشعراء)؟ خُص هذان الاسمان بالذكر دون غيرهما ؛ لأن الرب هو القائم بمصالح الخلق من ابتداء التربية إلى آخر العمر ، والرحمن هو المنعم عليهم في الدنيا[٣] ، وليس في

---

(١) حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي : ٣٥/٣ ، دار صادر بيروت .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١١ / ٢٣٧ .

(٣) انظر : درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز : ١٨٣ ، للخطيب الإسكافي .

أسماء الله اسم أشبه باسم الله من الرحمن ؛ لأنهما اسمان ممنوعان أن يُسمى بهما غير الله [١].

وإنما خُصت (الأنبياء) بـ"من ربهم" ؛ لتكون موافقة لما يأتي بعده في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وخُصت (الشعراء) بـ" الرحمن" ؛ لتكون موافقة لما يأتي بعدها من صفتي ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ التي تكررت في السورة كثيراً ؛ لأن الرحمن والرحيم من مصدر واحد، وهكذا تكون كل سورة مخصوصة بوصف من أوصافه[٢] .

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز : ٣١٨ .

(٢) انظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: ٢ / ٦٩٢ .

الخاتمة

وبعد: فهذه هي نهاية المطاف لهذا الإبحار الماتع في كتاب الله، ولهذه الصحبة المباركة للحروف في القرآن الكريم، التي تم من خلالها النظر في أنواع هذه الحروف، وبيان شيء من أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، من خلال إيراد الشواهد المتعددة لها، والنظر إليها من خلال السياق الذي ضمها.

وهذه أبرز النتائج التي أمكن الاهتداء إليها، والخروج بها من هذه الدراسة:

أولاً: أن الأسلم في الحروف المقطعة السكوت عن معناها، ورد علمها إلى الله، فهو ـ سبحانه ـ أعلم بمراد كتابه؛ إذ لم يرد نص شرعي صحيح في ذلك، مع القطع بأن لهذه الحروف حِكَماً وأسراراً، كما أن لهذه الحروف علاقة وثيقة، وصلة متينة بإعجاز القرآن الكريم، في تحديه لهم بمعارضته، أو الإتيان بمثله، يدل على هذه العلاقة، ويشير إلى تلك الصلة ورود ذكر حديث عن القرآن الكريم بعد الحروف المقطعة.

ثانياً: أن للعلماء اهتماماً كبيراً، وجهداً بارزاً في دراستهم لحروف المعاني على اختلاف مشاربهم، وتعدد تخصصاتهم، كان ذلك منهم تنظيراً وتطبيقاً، تنظيراً من خلال ورود كثير من المقولات لهم في التنويه بشأنها، وبيان أهميتها في الدلالة على المعنى المراد، ومن خلال ـ كذلك ـ المؤلفات الكثيرة والمتنوعة التي تناولت هذه الحروف بالدراسة، والبيان لخصائص كل حرف على حِدة، وما يميزه عن الآخر.

وأما التطبيق فقد كان ذلك على يدي كثير من المفسرين والبلاغيين، فقد توجهوا بأنظارهم إلى هذه الحروف، ذاكرين أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية من خلال الشواهد والنصوص التي تعرضوا لها في دراستهم ومؤلفاتهم.

وقد اتضح من ذلك كله أن المعنى مرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه الحروف، بل وبتغير هذه الحروف يتغير معه المعنى كله، مما يشهد بدقة اللغة العربية، وسمو كعبها، كما أن ذلك دليل على إعجاز القرآن الكريم، وحسن بلاغته في توخيه لحروف المعاني التي تحقق المعنى المراد، وتدل عليه.

ثالثاً: تبين من خلال الوقوف مع الحروف في القرآن الكريم، والنظر في بلاغتها، وأثرها في سياقها أن ليس ثمة زيادة في حروف القرآن الكريم، بخلاف من يتساهل في هذا ويقول: إن هذا الحرف زائد، فكل حرف في القرآن الكريم أصل أصيل في مكانه، جاء لتحقيق غرض لا يتمُّ المعنى إلا به، فقد انطوت تلك الحروف التي قيل بزيادتها على معانٍ وحِكم، وجاءت بأسرار ما كانت لتكون لولا تلك الحروف، تتجلى هذه المعاني والأسرار حين الغوص في دقائق هذه الحروف البيانية، والنظر في المعنى المراد تحقيقه وبيانه.

والحمد الله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات

فهرس المصادر والمراجع

[١] الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تقديم وتعليق: د. مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير، بيروت، ط: الثانية: ١٤١٤ هـ.

[٢] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[٣] أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النسيابوري، شركة ومطبعة مصطفى البابي، ط: الثانية: ١٣٨٧هـ.

[٤] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٣ هـ.

[٥] الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية بيانية، للدكتورة عائشة بنت الشاطئ، دار المعارف القاهرة، ط: الثانية.

[٦] إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط: السادسة.

[٧] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: التاسعة: ١٣٩٣هـ.

[٨] الإعراب في قواعد الإعراب، لابن هشام، تحقيق د. على فودة نيل، الناشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ط: الأولى: ١٤٠١هـ.

[٩] إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس، تحقيق د.زهير غازي زاهد، عالم الكتب بيروت، ط: الثالثة: ١٤٠٩ هـ.

[١٠] إملاء ما منَّ به الرحمن في وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، لأبي البقاء العكبري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، دار الحديث القاهرة.

[١١] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لأبي سعيد عبدالله البيضاوي، دار الفكر.

[١٢] أوضح المسالك إلى ألفية أبن مالك، لابن هشام، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ط: الخامسة: ١٣٩٩ هـ.

[١٣] البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، ود. زكريا عبدالمجيد النوني، و د. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣ هـ.

[١٤] البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث.

[١٥] البرهان في متشابه القرآن، لمحمود بن حمزة الكرماني، قدم له وراجعه على أصوله، وقوَّم نصوصه أحمد عز الدين عبدالله الخلف، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع في المنصورة، ط: الأولى: ١٤١١هـ.

[١٦] البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، كمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني، تحقيق: د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي، مطبعة المعاني بغداد، ط: الأولى: ١٣٩٤ هـ.

[١٧] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيزوزأباي، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.

[١٨] بغية الإيضاح، عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة إحياء الكتب الإسلامية، بيروت.

[١٩] بيان إعجاز القرآن، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، تحقيق : محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط الرابعة، طُبع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

[٢٠] تأويل مشكل القرآن، لأبي عبدالله بن مسلم بن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، دار التراث القاهرة، ط : الثانية : ١٣٩٣ هـ .

[٢١] التحرير والتنوير، للشيخ محمد بن طاهر بن عاشور .

[٢٢] تفسير الجلالين، لجلال الدين أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية بيروت .

[٢٣] تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام الرياض، ط : الأولى : ١٤١٣ هـ .

[٢٤] التفسير القيم ، لابن القيم، تحقيق محمد الفقي، مكتبة السنة المحمدية .

[٢٥] التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط : الثالثة .

[٢٦] تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار، لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، ١٤١٤ هـ .

[٢٧] تفسير النسفي، للإمام أبي البركات عبدالله بن أحمد النسفي، دار الكتاب العربي، ١٤٠٨هـ .

[٢٨] تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي، عالم الكتب، ط : الأولى: ١٤٠٦ هـ .

[٢٩] تناوب حروف الجر في لغة القرآن، د. محمد حسن عواد، دار الفرقان عمان، ط: الأولى: ١٤٠٢ هـ.

[٣٠] تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، المكتب الإسلامي، ط: السادسة ١٤٠٥ هـ.

[٣١] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح: محمد البسام، دار المدني بجدة، ١٤٠٨ هـ.

[٣٢] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط: الثالثة.

[٣٣] الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد القرطبي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٨ هـ.

[٣٤] الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤١٣هـ.

[٣٥] حاشية زادة على تفسير البيضاوي، لمحي الدين شيخ زادة، دار إحياء التراث العربي بيروت.

[٣٦] حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[٣٧] حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، دار الطباعة العامرة الاستانة، ١٢٨٦هـ.

[٣٨] حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي، دار صادر بيروت.

[٣٩] حروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي، د. دياب عبد الجواد عطا، دار المنار.

[٤٠] حقائق التأويل في متشابه التنزيل، للشريف الرضي، تحقيق محمد الرضا آل كاشف، دار التراث الإسلامي بيروت.

[٤١] دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د. عبدالخالق عظيمة، دار الحديث القاهرة.

[٤٢] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لشهاب الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالسمين، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالجواد، ود. جاد مخلوف جاد، ود. زكريا عبدالمجيد النوتي، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى : ١٤١٤هـ.

[٤٣] درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، للخطيب الإسكافي، دار الكتب العلمية بيروت ، ط: الأولى : ١٤١٦ هـ.

[٤٤] الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، د. أحمد مكي الأنصاري، دار المعارف مصر، ١٣٩٣ هـ.

[٤٥] رصف المباني في شروح حروف المعاني، للمالقي، تحقيق: د. أحمد الخراط، دار القلم دمشق، ط: الثانية: ١٤٠٥ هـ.

[٤٦] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الرابعة : ١٤٠٥ هـ.

[٤٧] زاد المسير في علم التفسير، للإمام أبي الفرج ابن الجوري، المكتب الإسلامي بيروت ط: الرابعة : ١٤٠٧ هـ.

[٤٨] سرُّ صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان بن جني، دراسة وتحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم بدمشق، ط: الثانية: ١٤١٣ هـ.

[٤٩] سنن ابن ماجة، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول تركيا، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

[٥٠] سنن أبي داود، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول تركيا، راجعه وضبط أحاديثه وعلى حواشيه محمد محي الدين عبدالحميد.

[٥١] سنن الترمذي، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول تركيا، أشرف على التعليق والطبع عزت عبيد الدعاس.

[٥٢] شرح المفصل، لابن يعيش النحوي، مكتبة المتنبي في القاهرة.

[٥٣] الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية، لأبي بكر عبدالرزاق، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: الأولى: ١٩٩٠م.

[٥٤] صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول، تركيا.

[٥٥] صحيح مسلم، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول تركيا، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

[٥٦] الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٢ هـ.

[٥٧] علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجاز القرآن، د. عدنان زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: الأولى: ١٤٠١هـ.

[٥٨] الفتاوى، مكتبة ابن تيمية للطباعة ونشر الكتب السلفية.

[٥٩] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

[٦٠] فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، راجعه وعلق عليه الشيخ عبدالعزيز بن باز، دار السلام الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣ هـ.

[٦١] الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تقديم: محمد عبدالرزاق حمزة، مطبعة المدني، القاهرة، ١٤٠٣ هـ.

[٦٢] الفوائد، لابن القيم الجوزية، تحقيق أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، ط: السابعة: ١٤٠٦هـ.

[٦٣] الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، د. السيد عبد المقصود جعفر، دار الطباعة والنشر الإسلامية بالقاهرة، ط: الأولى: ١٤١٢ هـ.

[٦٤] في ظلال القرآن، سيد قطب: دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط: الثانية عشرة: ١٤٠٦هـ.

[٦٥] قبس من البيان القرآني، د. محمد حسن شرشر، دارالطباعة المحمدية، ط: الأولى: ١٤٠٣ هـ.

[٦٦] الكتاب، لسبيويه، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثالثة: ١٤٠٨ هـ.

[٦٧] كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، للإمام محمد بن أحمد الكلبي، دار الكتاب العربي، ط: الثانية: ١٣٩٣ هـ.

[٦٨] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ.

[٦٩] لباب التأويل في معاني التنزيل ، للخازن، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط: الثانية : ١٣٧٥ هـ.

[٧٠] لسان العرب، لابن منظور ، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الثالثة: ١٤١٣ هـ.

[٧١] لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن، د. فضل حسن عباس ، دار النور، بيروت، ط: الأولى :١٤١٠ هـ.

[٧٢] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير، قدَّمه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

[٧٣] مجاز القرآن ، لأبي عبيدة، عارضه بأصوله وعلق عليه: د. فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

[٧٤] محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العلمية.

[٧٥] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق : عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.

[٧٦] معالم التنزيل، للبغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك و مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط: الثانية: ١٤٠٧ هـ.

[٧٧] معاني الحروف، للرماني، تحقيق: د. عبدالفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، جدة، ط: الثالثة: ١٤٠٤ هـ.

[٧٨] معاني القرآن، للأخفش سعيد بن مسعدة، دراسة وتحقيق: د. عبدالأمير محمد أمين الورد، عالم الكتب، بيروت، ط: الأولى: ١٤٠٥ هـ.

[٧٩] معاني القرآن، للفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد على النجار، د. عبدالفتاح شلبي، وعلى النجدي ناصف، دار السرور.

[٨٠] معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج، تحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، ط: الأولى: ١٤١٤ هـ.

[٨١] معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤٠٨هـ.

[٨٢] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧ هـ.

[٨٣] مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق، ط: الثانية: ١٤١٨هـ.

[٨٤] المفصل في علم العربية، للزمخشري، دار الجيل، بيروت.

[٨٥] ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، لأحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق: د. محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

[٨٦] من أساليب التعبير القرآني دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني، د. طالب محمد زوبعي، دار النهضة العربية، بيروت، ط: الأولى: ١٩٩٦ م.

[٨٧] من أسرار التعبير القرآني: حروف المعاني، د. عبدالفتاح لاشين، شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع، ط: الأولى: ١٤٠٣ هـ.

[٨٨] من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة.

[٨٩] موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب، للشيخ خالد الأزهري، تحقيق: د. عبدالكريم مجاهد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٧ هـ.

[٩٠] النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبدالله دراز، دار القلم الكويت، ط: الثانية: ١٣٩٠هـ.

[٩١] نظرية الحروف العاملة مبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً، د. هادي عطية الهلالي، عالم الكتب، بيروت، ط: الأولى: ١٤٠٦ هـ.

[٩٢] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط: الثانية: ١٤١٣ هـ.

[٩٣] النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن الرماني، دار المعارف، القاهرة، ط: ٤، طُبع ضمن ثلاث رسائل في إعجار القرآن.

[٩٤] الهدى والبيان في أسماء القرآن، لفضيلة الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي، ط: الثانية: ١٤٠٣هـ.

[٩٥] وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور، للدكتور فهد الرومي، مكتبة التوبة، الرياض، ط: الأولى: ١٤٠٧ هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
توطئة	٨
المبحث الأول: الحروف المقطعة	١١-٣٠
المراد بالحروف المقطعة	١١
موقف العلماء من الحروف المقطعة	١٢
الرأي الأول في المراد بالحروف المقطعة	١٢
الرأي الثاني في المراد بالحروف المقطعة	١٤
أشهر الأقوال التي قيلت في معنى الحروف المقطعة	١٤
نظرة إمعان وتأمل في موقف العلماء من الحروف المقطعة	١٨
وقفات مع الرأي الأول	١٩
الوقفة الأولى	١٩
الوقفة الثانية	٢٢
الوقفة الثالثة	٢٢
رأي المؤلف في الحروف المقطعة وموقفه من الآراء السابقة	٢٣
ارتباط الحروف المقطعة بإعجاز القرآن الكريم	٢٥
وقفات مع مَن يرى أن للحروف المقطعة ارتباطاً بإعجاز القرآن	٢٦
الوقفة الأولى.....	٢٦
الوقفة الثانية.....	٢٧

الموضوع	الصفحة
أسرار بلاغية ونكت بيانية في الحروف المقطعة.....	٢٨
الحروف المقطعة ستبقى كتاباً مفتوحاً لمن يتدبرها ويتأملها.....	٢٩
المبحث الثاني: حروف المعاني	٣١-٥٨
أقسام الحروف.....	٣١
المراد بحروف المعاني.....	٣١
موقف العلماء من حروف المعاني واهتمامهم بها.....	٣١
مؤلفات العلماء في حروف المعاني.....	٣٢
تعدد طرق التأليف في حروف المعاني.....	٣٤
سبب اهتمام العلماء في حروف المعاني.....	٣٤
اهتمام المفسرين والبلاغيين في حروف المعاني وجهودهم في ذلك	٣٧
وقفات بلاغية لأسرار حروف المعاني في القرآن الكريم.....	٣٨
نماذج تحليلية من القرآن الكريم لحروف المعاني.....	٣٨
النموذج الأول من سورة النساء آية [١٠٥].....	٣٩
النموذج الثاني من سورة طه آية [١١٣ــ١١٤]....	٤٣
النموذج الثالث من سورة الشورى آية [٥٢ــ ٥٣]..	٤٩
المبحث الثالث: حروف الصلة	٥٩-٩٥
المراد بحروف الصلة.....	٥٩
موقف العلماء من وجود الصلة في القرآن الكريم.....	٦٠
العلماء الذين يثبتون الزيادة في القرآن الكريم.....	٦٠

الموضوع	الصفحة
العلماء الذين يثبتون الزيادة في القرآن الكريم بشيء من التوسط والاعتدال	٦١
العلماء الذين يرفضون الزيادة في القرآن الكريم.....	٦٣
موقف المؤلف من وجود الزيادة في القرآن الكريم.....	٦٨
نماذج تحليلية من القرآن الكريم لحروف قيل بزيادتها.....	٧١
النموذج الأول من سورة البقرة آية [٩١].....	٧١
النموذج الثاني من سورة الأعراف آية [١ــ٣].....	٧٧
النموذج الثالث من سورة التوبة آية [١٢٤ــ١٢٥].....	٨٥
النموذج الرابع من سورة الأنبياء آية [١ــ ٢].....	٨٩
الخاتمة	٩٧
فهرس المصادر والمراجع	٩٩
فهرس الموضوعات	١٠٩